
على طريق الصحوة ١٣
عجز الثقات
تأليف
بن حسن بن عقيل موسى الشريف
دار الأندلس الخضرا
للنشر والتوزيع
جدة

معالم على طريق الصحوة (١٣)

عجز الثقات

تأليف

د. محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨ م

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع
الإدارة : حي الثغر - شارع باخشب - سوق الجامعة التجارى
هاتف : ٦٨١٥٠٢٧ فاكس : ٦٨٨٤٧٨٢
فرع السلامة - شارع عبدالرحمن السديري - مركز الزومان التجاري
هاتف وفاكس : ٦٨٢٥٢٠٩ - ص.ب ٤٢٣٤٠ جدة ٢١٥٤١

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

موسى ، محمد بن حسن عقيل

عجز الثقات .ــ جدة.

١٤٨ص ؛ ٢٠x١٤سم .ــ (معالم على طريق الصحوة ؛)

ردمك ٣-١٧-٧٩١-٩٩٦٠

١- الثقافة الإسلامية　　أ- العنوان　　ب- السلسلة.

ديوي ٢١٤　　١٩/٠٣٣٣

رقم الإيداع : ١٩/٠٣٣٣

ردمك : ٣-١٧-٧٩١-٩٩٦٠

ولد «س» العاجز سنة ١٣٤٠.

مات سنة ١٣٦٠.

دُفِنَ سنة ١٤١٠.

عاش ٧٠ سنة بدون هدفٍ أو خطّةٍ أو عزمٍ وتصميم.

لم يرتق بمواهبه، ولم يشترك مع أحدٍ في شيءٍ نافع.

عاش على هامش التاريخ.

مات ولم يشعر به أحد.

قال تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

***

قال النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل...».

***

قال الفاروق رضي الله تعالى عنه:

«أعوذ بالله من جَلَد الفاجر وعجز الثقة».

***

قال أبوتمام رحمه الله تعالى:

ولم أر في عيوب الناس عيباً

كنقص القادرين على التمام

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، موفق العاملين، مثيب الطائعين، من عمل له جازاه، ومن قصده حماه، ومن توكل عليه كفاه، يعلم من عبده الرغبة في الخير فيهديه سبلَه، وطلبَ الرضى فيعطيه سؤلَه، وسؤالَ الثبات فيثبته حتى يوفيَه أجلَه، أنعم به من رب عظيم، من تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً، ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب إليه باعاً، يرضى من عبده بالعمل، وأن يفزع إليه بالرغبة والأمل، ولله في كمال ذلك العمل أجل، قضاء قضاه وعلينا الطاعة، ورزق وفّاناه فلا نتأخر عنه ولا نستقدم ساعة، فإليه المفزع في كل حين، وعليه التوكل وبه اليقين.

والصلاة والسلام على من كشف الله به الغُمَّة، وأنار الظُلمة، وأسعد به العالمين، وأسعف به العاملين،

اقتدى به الصحابة فنشروا النور في الناس، وتبعهم التابعون فعملوا بجد وإخلاص وعدم ياس، وكثر العاملون العالمون، وقلَّ المثبطون القاعدون، فتربعنا على عرش الأمم زماناً فكنا نعمة وأماناً، ونوراً وسلاماً.

ثم رغبنا في الدنيا وتطلعنا إليها، ونافس بعضنا بعضاً عليها، ونسينا المعاني العلية قروناً، فأخلدنا إلى الأرض، ونسينا أن الاجتهاد في كل عصر فرض، ورضينا بالصِّغار من الأمور، حتى ورثنا الذلة والصَّغار دهوراً بعد دهور، فأصبحنا ننادي على أنفسنا بالحسرة والثبور، والهلاك وعظائم الأمور، إلاقلة قليلة عرفت طريق المجد التليد فسلكته، وباب العزة السليب فطرقته، وهذه القلة ـ اليوم ـ شامة بين العباد، فالله المسؤول أن يحرسها، وأن يبلغها المأمول ويسعفها، فإنه تقطعت القلوب من هول ما خالطها، وذهلت العقول من تتابع شرور من صادمها.

وهذه الرسالة هي للمؤمنين الصادقين الذين عرفوا الطريق والتزموه، لكن لأسباب كثيرة ما تمسكوا به ولا لزموه، فهم يراوحون مكانهم ولا يتقدمون، وكأنهم

نسوا المعاني العلية فليس لها يعملون .

هم فتية وشباب وكهول صالحون، مازالوا بدرب الفضيلة والخير يستمسكون، لكنهم قد غلبت عليهم الدعة والكسل، وحب الدنيا وطول الأمل، فأرادوا أن يكونوا صالحين بلا عمل ولا تبعات، ولكن هيهات هيهات، ألم يبلغهم أن « الدنيا حلوة خضرة، والله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون»[1]، أم استغنوا عن عالي الدرجات في الجنات، التي لا يبلغها إلا الأنبياء، ورفقتهم من الصالحين والصديقين والشهداء .

فكانت هذه الرسالة مذكرة للعاجزين من الثقات، الذين ملكوا كل وسائل الفوز بالعالي من النعيم المقيم ثم هم يأبون ذلك ويرضون بالقليل، فعسى أن يتضح

---

(١) جزء من حديث نبوي شريف، أخرجه الإمام أبو داود، وابن ماجة، والطبراني وغيرهم، وجملة: «الدنيا حلوة خضرة» صحيحة، وباقي الحديث فيه ضعف، انظر «مجمع الزوائد»: ١٠/ ٢٤٩، و«سنن الترمذي»: كتاب الفتن: باب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة، وسنن ابن ماجة: كتاب الفتن: باب فتنة النساء.

لهم عِظَمُ ما اقترفوه بتضييعهم، وكثرةُ ما فرطوا فيه من حسنات بتفريطهم، والله المستعان وعليه التكلان.

وهذا الموضوع ظللت أجمع مادته سنوات؛ إذ ما أكثر ما حاضرت فيه ووعظت وخطبت، فتجمعت مادته في ذهني، ورأيت فقراته تمثلت في كثير من الناس ممن أخالطهم، وممن أسمع أحوالهم، وصح ـ عندي ـ تصور ما كتبته، وتبرهن ـ لديَّ ـ صدق ما أوردته، إذ ليس راءٍ كمن سمعا، وما الخبر كالعَيان.

ولاأبرىء نفسي من كثير مما كتبته وسطرته لكن حسبي أني مذكر وناصح ومشفق، ومسطرٌ تجارِب خبرتها، ومتذكرٌ حوادثَ حضرتها، وسنوات عركتها، والله حسبي ونعم الوكيل، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

عجز الثقات

معنى العجز:

جاء في «معجم مقاييس اللغة»: ع ج ز:

«العين والجيم والزاء أصلان صحيحان يدل أحدهما على الضعف[١]، والآخر على مؤخر الشي.

فالأول عجز عن الشيء يعْجز عجزاً فهو عاجز أي ضعيف... ويقولون: أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه».

والعجز «ترك ما يُحبّ فعله بالتسويف، وهو عام في أمور الدنيا والدين».

«وهو نقيض الحزم»[٢].

---

(١) وهو المراد في هذا البحث.

(٢) «لسان العرب»: ع ج ز.

معنى الثقة:

قد يتبادر إلى الذهن أن المراد بالثقة هو العدل الضابط ـ كما هو معروف في علم الحديث ـ[١] لكن المراد ـ في هذا المبحث ـ غير ذلك، وإن كان الثقة المراد يجب أن يكون عدلاً في دينه، «وفُسر العدل بأن يكون مسلماً بالغاً عاقلاً سليماً من أسباب الفسق وخوارم المروءة»[٢].

والثقة المراد بهذا البحث هو من وثق به الناس «في دينه وخلقه وعقله وكفاءته لتولي عمل من الأعمال؛ لأنه بهذه الثقة قد استوفى أهليته... وأمّا في مَجال الدعوة إلى الله فتعني الأهلية لتولي عمل من أعمال الدعوة إلى الله في أي مرحلة من مراحل الدعوة...»[٣].

وتعريف الثقة ـ هنا ـ قريب من تعريف الثقة عند المحدثين؛ على أن يضاف إلى تعريف المحدثين حيازة الخبرة والكفاءة لتولي عمل من أعمال الدعوة

---

(١) «تدريب الراوي»: ١/ ٤٣.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٢٥٣ـ ٢٥٤.
(٣) «التوثيق والتضعيف بين المحدثين والدعاة»: ١٤.

إلى الله؛ إذ لهذه الدعوة خبرات ميدانية من حرمها لا يُعدَّل أو يُزكَّى لتولي أعمالها»[١].

ويُستأنس هنا بقول ابنت شعيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما قصه علينا الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[٢]، «أي: إن موسى أولى من استؤجر، فإنه جمع القوى والأمانة، وخير أجير استؤجر من جمعهما: القوة والقدرة. . . وهذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملاً، بإجارة أو غيرها»[٣].

والقوي الأمين هو نوع عال من التوثيق إن وُسم بهما المسلم كان ثقة إن شاء الله تعالى.

ويستأنس ـ أيضاً ـ بقول نبي الله يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[٤].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة القصص: آية ٢٦.

(٣) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»: ٦/ ١٧.

(٤) سورة يوسف: آية ٥٥.

فالحفظ والعلم درجتان مهمتان في سلم التوثيق لاغنى عنهما.

وهذا أبو بكر يوثق زيد بن ثابت ـ رضي الله عنهما ـ لأداء مهمة صعبة وهي جمع القرآن، فقال مزكياً موثقاً:

«إنك رجل شاب، عاقل، لانتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبَّع القران فاجمعه»[١].

وقال ابن حجر[٢] ـ رحمه الله تعالى ـ:

«ذكر له أربع صفات مقتضية خصوصيته بذلك: كونه شاباً فيكون أنشطَ لما يطلب منه، وكونه عاقلاً فيكون أوعى له، وكونه لايُتهم فتركن النفس إليه، وكونه كان يكتب الوحي فيكون أكثر ممارسة له. وهذه الصفات التي قد اجتمعت له قد توجد في غيره لكن مفرقة»[٣].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن: باب جمع القرآن.

(٢) أحمد بن علي بن محمد، الإمام الحافظ، صاحب التصانيف النافعة، أصله من عسقلان، وولد وعاش في مصر وتوفي بها سنة ٨٥٢، رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «الضوء اللامع»: ٢/ ٣٦-٤٠.

(٣) «فتح الباري»: ١٩/ ١٤.

وكما أن التوثيق عند المحدثين درجات فالتوثيق ـ اليوم ـ له درجات أيضاً؛ فمن الناس من هو ثقة ثقة، أو جبل، أو ركن الإسلام، ومن الناس من هو ثقة فقط، ومن الناس من تدنى ليكون صدوقاً مقبولاً، ومنهم من ليس في درجات التزكية والتوثيق في قليل أو كثير.

وقد تختلف أنظار الناس في تقويم الرجال وتوثيقهم، والصواب في هذه المسألة:

أن من غلبت حسناته، وبرزت كمالاته، وغابت خطيئاته، ولم يعرف بأنه داعية إلى بدعة كبيرة، أو مذهب ضال، فهو الثقة، إن شاء الله تعالى، ومن اختلف فيه من الناس فينظر لحاله بمنظار الإنصاف لا منظار الغلو والتجريح والتشفي وغلبة الهوى، فإن كان له من الصفات والحسنات ما يؤهله للّحاق بالثقات فهو حسن، وإلا فليصلح من حاله وليتب إلى الله ـ تعالى ـ حتى يلتحق بهم.

قال سعيد بن المسيب[١] ـ رحمه الله تعالى ـ:

---

(١) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب القرشي المخزومي، =

«ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، فمن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله»(١).

وقال ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ:

«ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان، قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور بل مأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يُتبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته في قلوب المسلمين»(٢).

وقد يقال: إن الضابط المذكور مقارب لما اشترطه المحدثون في التوثيق، ونحن لا نحتاج اليوم

= أحد العلماء الأثبات الفقهاء الكبار، اتفقوا على أن مرسلاته أصح المراسيل، وقال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه، مات بعد التسعين، وقد ناهز الثمانين. انظر «التقريب»: ٢٤١.

(١) «منهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال ومؤلفاتهم»: ٣٠.

(٢) المصدر السابق: ٣٣.

إلى ضابط مثله، بل يحسن أن يخفف من الشروط المذكورة، وأقول:

إن الدعوة إلى الله تعالى ـ اليوم ـ تناطح مذاهب فاسدة، وعقائد بالية، وهجمة نصرانية ماكرة، وتخطيطاً يهودياً دقيقاً، فإن لم يتصد لذلك كله ثقات مأمونون، قد ربُوا تربية سليمة على منهج السلف الصالح فإن مسيرة الدعوة قد تتعطل أو تختل، لكن يمكن أن يكون من لم يَحُز تلك الشروط أو بعضها نصيراً للإسلام محباً له عاملاً على التمكين له تحت قيادة ونظر وبصر أولئك الثقات المذكورين آنفاً.

«إنَّ سَمْت التشدد، وطلب الصفات المتكاملة إنما يجب للقادة والمربين، وأما ما دون ذلك فإن العمل الإسلامي ينتفع من كل إمكانية خير مهما ضمرت وصغرت، ويدير في فلكه كل متعاطف مهما أثقلته العيوب التي لا تعود بضرر على مجمل الدعاة»[١].

وينبغي أن يُعلم أن الضعف غالب في الناس

---

(١) «العوائق» : ١٤١-١٤٠.

اليوم، والثقات قلائل نسبياً، وذلك كما هو في كل زمان ومكان؛ إذ الضعفاء والمتروكون هم الفئة الكبيرة، والثقات ـ وإن جلوا وعظموا وكثروا ـ هم الفئة الأقل، قال النبي ﷺ:

«تجدون الناس كإبل مائة لايجد الرجل فيها راحلة»[١].

لكن هؤلاء الثقات الرواحل هم الذين عليهم حماية الدين، وقوة الإسلام اليوم، وإليهم يوجه الكلام، وعليهم يعتمد في المهمات والملمات، فإن عجزوا أو تراجعوا فمن يُرجَّى لنصرة الدين، ومن يُرغب إليه ويفزع في المهمات بعد الله عز وجل،

---

(١) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة: باب الناس كإبل مائة لايجد الرجل فيها راحلة: ٧٩/١٦. وقال ابن قُتيبة: الراحلة: النجيبة المختارة من الإبل وغيره فهي كاملة الأوصاف، فإذا كانت في إبل عرفت.
وقال الأزهري: معنى الحديث أن الزاهد في الدنيا الكامل في الزهد فيها والرغبة في الآخرة قليل جداً كقلة الراحلة في الإبل.
وذكر النووي معنى أجود وهو: المرضي الأحوال من الناس، الكامل الأوصاف، الحسن المنظر، القوي: المصدر السابق.

فلذلك كان هذا البحث موجهاً إليهم مخاطباً لهم، باحثاً عن همومهم، مساعداً إياهم على تجاوز عثراتهم وعجزهم، وتالله إنهم لهم المنصورون، وإنهم لهم الجند الغالبون، لكن إن كانوا لجهدهم يستفرغون، وعلى الله تعالى يتوكلون، ولما يناط بهم منجزون.

العمل والعجز في المصطلحات الحديثة:

«الصفة التي تمكن الإنسان من أداء واجبه ليصل إلى الهدف الذي يرمي إليه يطلق عليها في مصطلحات العصر الحاضر حين يبحثون هذا الموضوع «الفعالية» و«النمو» و«المقدرة التأثيرية»، كما يطلقون على العجز الذي يصاب به الإنسان مصطلح «اللافعالية» أو «السلبية» أو «التخلف».

وهذا الموضوع جدير بالاهتمام، وعبر عنه القرآن في مثل الرجلين الذي ضربه الله، فقال تعالى:

﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ

كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١] . . .

والآية تدل ـ بشكل دقيق واضح ـ على الفعالية في مثل الرجلين الذي ضربه الله: مثل الرجل الأبكم الذي لا يقدر على شيء وهو كلٌّ على مولاه أينما يوجهه لايأت بخير، فإنه وصف دقيق للاَّفعالية في عدم القدرة على شيء، وفي عيشه عالة على الآخرين، كما تدل على أن عجزه عام وليس في جانب واحد؛ لأنه أينما يوجهه لا يأت بخير»[٢].

***

(١) سورة النحل: آية ٧٥-٧٧.

(٢) «الإنسان حين يكون كلاً وحين يكون عدلاً»: ٤-٥.

أهمية العمل وترك العجز

إن العمل على رفعة دين الله والتمكين له في الأرض أمر جليل عظيم، وهو عمل الأنبياء والمرسلين والمصلحين، في قافلة نورانية طويلة من لدن آدم حتى تقوم الساعة، وإن الملتحق بهذه القافلة لحائز على شرف عظيم، والمتخلف عنهم قد فاته خيرٌ كثير.

والله ـ تعالى ـ يكافىء العاملين مكافأة عظيمة في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيثبتهم وينصرهم، ويربط على قلوبهم ويثبتهم، وينير دربهم، ويطرد وسواس الشيطان عنهم.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[1].

---

(١) سورة محمد ﷺ: آية ٧.

وأما في الآخرة فإن الدرجاتِ العاليةَ مقصورة عليهم، ومرافقةَ الأنبياء مكافأة لهم، وتكرر النظر إلى وجه الله الكريم أعظم نعيم يتنعمون به في الجنة.

وينبغي أن يُعلم أن العامل إنما يعمل لنفسه كسباً للحسنات ورفعة في الدرجات، والعاجز إنما جنى على نفسه تفريطاً في الحسنات ودنواً في الدرجات.

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[١].

والعامل يكافئه الله ـ تعالى ـ ويرى نتيجة عمله ويبشر بها في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[٢].

والعاجز يظل حياته بين كسل وملل، ووساوس وشبهات، واعتراضات وانتقادات حتى يدركه الموت وهو على ذلك.

---

(١) سورة الروم: آية ٤٤.

(٢) سورة التوبة: آية ١٠٥.

والعامل هو الذي يملي على التاريخ ما يسطره، ويرغمه أن يفسح صفحات من أسفاره لكتابة سيرته وتسطير مآثره، أما العاجز من الثقات فإنه يعيش على هامش التاريخ لا يعرف كيف يقرأ أحداثه ويستفيد منها بلْه أن يؤثر فيها، يظل قابعاً في مكانه حتى يأتيه الموت لايعرفه أحد ولا تبكي عليه السموات والأرض.

والناظر في أحداث التاريخ منذ آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى يومنا هذا فإنه يجزم أن لا مكان فيه للعاجز القابع، وأن الثقات العاملين في سباق وتنافس للوصول إلى الغاية العليا وهي رضى الله تبارك وتعالى.

وسأذكر جوانب توضح مدى أهمية استغلال العمر الذي نعيشه في دنيانا، وأنه إن غفلنا وعجزنا عن استثماره فسيفوتنا خير كثير كثير، وجوانب الأهمية تتضح في الآتي:

أولاً: قصر الزمان المتاح للعمل الصالح:

الناظر في أحوال المسلمين اليوم يقدر أن أكثر الصالحين العاملين لم يلتزم طريق الصلاح ويفقهه إلا

في حدود سن العشرين، تقل قليلاً أو تزيد قليلاً، ومعنى ذلك أنه قد فات عليه ثلث عمره تقريباً فلم يستفد منه الاستفادة المرجوة، وهذا بناء على حديث النبي ﷺ: «عمر أمتي من ستين سنة إلى سبعين»[١].

وهذا مشاهد ملحوظ، فلنفرض جدلاً أن رجلاً صالحاً من الناس سيعيش ستين سنة في هذه الدار، إذاً لا يتبقى من عمره إلا أربعون، وهذه الأربعون تمضي كالتالي، وهو الغالب، ولكل ماذكرته أو سأذكره في هذه الفقرة استثناءات لا تشوش على الأصل:

أولاً: يمضي ثلثها في النوم، وهذا ديدن أكثر الناس، وهناك أناس ينامون اثنتي عشرة ساعة في اليوم ـ والعياذ بالله ـ أي نصف حياتهم، وهناك من ينام أقل من ثمان ساعات وهذا قليل.

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه: أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ: باب ما جاء في أعمار هذه الأمة ما بين الستين إلى سبعين، وهو حديث حسنه الحافظ الترمذي والحافظ ابن حجر، انظر «تحفة الأحوذي»: ٦/ ٦٢٣ ـ ٦٢٤.

ومعنى هذا أنه قد نقص من الأربعين ثلاثة عشر عاماً ونيف.

ثانياً: يمضي ثلثها في العمل، وهذا للمعتدل أيضاً؛ إذ بعض الناس يعملون عملين أو أكثر، وعلى هذا ـ أي عَمَلُ ثلث الوقت ـ ينقص من الأربعين ثلاثة عشر عاماً أخرى ونيفاً.

ثالثاً: وعلى هذا التفصيل السابق يتبقى للإنسان الذي يعيش ستين عاماً ثلاثة عشر عاماً تقريباً فقط يقضي فيها فرائضه الدينية وشؤونه الدنيوية من زواج ورعاية أولاد، وزيارة أقارب وأصدقاء، وطعام وشراب، وذهاب إلى أماكن النزه والأسواق... إلخ. فكم يتبقى له للتنافس مع المتنافسين في شؤون الآخرة والتسابق إلى نعيمها؟

لهذا كان السلف يقلّلون ساعات النوم والعمل وقضاء الحاجات حتى يتوفر لهم وقت أكبر بكثير مما ذكرته، والله أعلم.

وسيرة الإمام النووي[١] رحمه الله ـ تعالى ـ سيرة

---

(١) يحيى بن شرف بن مري، مفتي الأمة، شيخ الإسلام، محيي =

عطرة عظيمة تصلح للتمثيل على حال سلفنا في استغلال الزمان في الأعمال الصالحة وعلى تقليلهم الطعام والشراب والعمل والنوم حتى يتبقى لهم أوقات عظيمة يستثمرونها في طاعة الله تعالى.

لما انتقل رحمه الله تعالى من بلدته نَوَى إلى دمشق اجتهد في مسابقة الزمان، حيث ظل سنتين كاملتين لم يضع جنبه على الأرض بل ينام متكئاً على كتبه[(١)]، ولم يزل يشتغل بالعلم، ويتعبد العبادة العظيمة من صلاة ليل وصيام دهر مع الزهد والورع بل التزام دقائق الورع، وعدم إضاعة شيء من الأوقات، فقد كان يدرس كل يوم اثني عشر درساً على مشايخه،

= الدين أبو زكريا النووي، الحافظ الفقيه الشافعي، أحد الأعلام، ولد سنة ٦٣١ بـ (نوى) إحدى قرى حوران شمال الشام، وقدم إلى دمشق فاجتهد في الاشتغال بالعلم، وصنف مصنفات نفع الله ـ تعالى ـ بها المسلمين واشتهرت وجلبت إلى الأمصار، توفي بـ (نوى) سنة ٦٧٦ عن ٤٥ سنة فقط رحمه الله تعالى، انظر «فوات الوفيات»: ٤/ ٢٦٤ ـ ٢٦٨، «الأعلام»: ٨/ ١٤٩ـ ١٥٠.

(١) «المنهل العذب الروي»: ٣٩.

وضُرب به المثل في إكبابه على طلب العلم ليلاً ونهاراً، وهجره النوم إلا من غلبة، وضبط أوقاته.

وكان يقول: «إذا غلبني النوم استندت إلى الكتب لحظة وأنتبه»[١].

وقد قدم له رجل من أصحابه خيارة مقشرة فامتنع من أكلها وقال: «أخشى أن ترطب جسمي فأنام»[٢].

«وكان لا يأكل في اليوم والليلة سوى أكلة واحدة بعد عشاء الآخرة، ولايشرب إلا شربة واحدة عند السحر»[٣].

و«كان يأكل من خبز يبعثه له أبوه من نوى يخبزونه له ويسيرِّون له ما يكفيه جمعة فيأكله، ولا يأكل معه سوى لون واحد، إما دبس وإما خل وإما زيت، وأما اللحم ففي كل شهر مرة، ولا يكاد يجمع بين لونين من إدام أبداً»[٤].

---

(١) المصدر السابق: ١١٥.
(٢) المصدر السابق: ١٢٠.
(٣) المصدر السابق: ١٢١.
(٤) المصدر السابق.

وبالجملة فقد كان عديم «الرفاهية والتنعم، مع التقوى والقناعة والورع الثخين، والمراقبة لله في السر والعلانية، وترك رعونات النفس... قليل الضحك، عديم اللعب، بل هو جدٌ صرف، يقول الحق وإن كان مراً، لا يخاف في الله لومة لائم»[١].

أرأيت - أخي القارىء - كيف يستفيد الصالحون من زمانهم بل يسابقونه مسابقة، وما ذاك إلا لأنهم عرفوا قيمة الزمان وقصره فاستفادوا منه أحسن استفادة.

وقد اكتفيت ببعض سيرة الإمام النووي مثالاً لما أردت إيراده، وفي السلف عشرات من أصحاب الهمم أمثاله، رحمهم الله تعالى جميعاً.

وأورد مثالاً قريباً منّا، وهو الشيخ البشير الإبراهيمي الجزائري، فقد عكف منذ بلغ السابعة على القرآن فحفظه، ثم حفظ كثيراً من المتون في الأصول والحديث، واللغة والبلاغة، ودواوين الشعر، وتصدر للأستاذية منذ بلوغه الرابعة عشر من عمره، وارتحل إلى مصر

---

(١) المصدر السابق.

والحجاز وبلاد الشام واغترف من بحور علمائها، خاصة في المدينة المنورة حيث وضع دعائم جمعية علماء المسلمين الجزائريين هو والشيخ ابن باديس، وكان ذلك سنة ١٩١٣، ثم لم تنشأ إلا في سنة ١٩٣١ لتكون شوكة في حلوق الفرنسيين، وكان قد تصدر للتدريس في وهران إحدى مدن الجزائر الكبيرة حيث كان يلقي عشر دروس في اليوم الواحد من صلاة الفجر إلى العشاء، ثم ينقلب إلى بعض النوادي الجامعة بعد صلاة العشاء ليلقي محاضرات في التاريخ الإسلامي، وبنى بهمته ٤٠٠ مدرسة إسلامية ومائتا مسجد للصلوات والمحاضرات مما أفزع المستعمر فنفاه إلى الصحراء، ثم عاد من منفاه ليرأس جمعية العلماء بعد وفاة ابن باديس فحمل المهمة الضخمة، وواصل الليل بالنهار دون نوم في أحيان متعددة، وبعث الهمة في أبناء الجزائر، وبنى المعاهد والمدارس التي كانت تقدم جنود الاستقلال بعد ذلك، ورأى ثمرة جهاده استقلالاً للجزائر سنة ١٩٦٢ ليحلق بربه راضياً سعيداً سنة ١٩٦٥، رحمه الله تعالى[١].

---

(١) «النهضة الإسلامية»: ١/ ٢٥١-٢٦٨ بتصرف كثير.

نعم قد يقال إن الإسلام دين شامل؛ فالعمل عبادة، والنوم بنية صالحة عبادة، وهذا صحيح لكني أردت في هذه الفقرة بيان قصر الزمان، وقلة المتبقي منه ـ بعد قضاء الحاجات الإنسانية من عملٍ ونوم ـ للتنافس على الدرجات العالية، وذلك لأن النية الصالحة قد يشترك فيها أكثر الناس، لكن الاستفادة الحقة من الأوقات قد يغفل عنها أكثر الثقات، والله المستعان.

ثانيا: عظم تفاوت الدرجات في الجنة:

إن الله ـ تبارك وتعالى ـ قد وعد الطائعين جنات النعيم، وأدخلهم فيها بمحض رحمة منه وفضل لا باستحقاق من العبيد كما هو معلوم.

لكن اقتضى العدل الإلهي ألاّ يستوي من بذل جهده واستفرغ وسعه في طاعة ربه والعمل على إعلاء دينه مع من قصر في ذلك، ولا يستوي من كان قد بذل جهداً ومالاً عظيمين مع من بذل جهداً ومالاً أقل، وهكذا، فلما اقتضى العدل الإلهي التفاوت أنشأ الله

- تبارك وتعالى - لعباده جنات مختلفة الدرجات، متفاوتة المنازل تفاوتاً عظيماً، وحض عباده على طلب الدرجات العالية، فقال جلمن قائل:

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[1].

وقال جل من قائل:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾[2].

ثم وصف مراتب من هم أقل منهم.

---

(١) سورة المطففين: آية ٢٢-٢٦.

(٢) سورة الواقعة: آية ١٠-٢٦.

وكذلك فعل سبحانه في سورة الرحمن وفي غيرها من السور داعياً عباده إلى التنافس في تلك الدرجات العاليات.

وحسبنا أن نعرف أن الله ـ تبارك وتعالى ـ بين أن الصحابة العظام لم يستووا، وهم سابقون مقدمون كلهم، فكيف حالنا نحن، قال تعالى:

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1].

وقد أخبر رسوله ﷺ في طائفة من أحاديثه الشريفة بعظم المراتب العالية، ودعا العباد إليها، وحثهم عليها، وبين لهم عظم فوز نائلها، فقال ﷺ:

«إن في الجنة غُرفاً تُرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها، فقام أعرابي فقال: لمن هي يارسول الله ﷺ؟ فقال: لمن أطاب الكلام، وأطعم

---

(١) سورة الحديد: آية ١٠.

الطعام، وأدام الصيام، وصلى لله بالليل والناس نيام»[١].

وقال ﷺ:

«إن في الجنة مائةَ درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة. . . وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»[٢].

وعن أنس بن مالك - رضي الله تعالى عنه - أن أم الرُبيِّع بنت البراء، وهي أم حارثة بن سراقة، أتت النبي ﷺ فقالت: يانبي الله: ألا تحدثني عن حارثة ـ وكان قتل يوم بدر، أصابه سهم غَرْب[٣] ـ فإن كان في الجنة

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه: كتاب البر والصلة: باب ما جاء في قول المعروف، وقد أخرجه أيضاً الإمام أحمد في مسنده بطرق يقوي بعضها بعضاً، فالحديث حسن إن شاء الله تعالى. انظر «مجمع الزوائد»: ١٠/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجهاد: باب درجات المجاهدين في سبيل الله.

(٣) أي لايعرف راميه.

صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، قال: يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»[١].

وقال ﷺ:

«أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر. والذين على أثرهم كأشد كوكب إضاءة»[٢].

وقال ﷺ:

«إن أهل الجنة يتراءيون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في أفق السماء من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم.

قالوا: يارسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟

قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[٣].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد: باب من أتاه سهم غرب فقتله.

(٢) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق: باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة.

(٣) المصدر السابق.

وقال ﷺ واصفاً تفاوت المراتب في الجنة:

«جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما . . .»[١].

وقد كان الصحابة يعرفون اختلاف الدرجات؛ لذلك قالت عائشة رضي الله عنها:

«جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله: والله إنك لأحب إليَّ من نفسي، وإنك لأحب إليَّ من أهلي، وأحب إليَّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[٢].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التفسير: باب قوله تعالى ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾.

(٢) سورة النساء: آية ٦٩. والحديث أورده ابن القيم في حادي =

وانظر ـ أخي القارئ ـ إلى طائفة من الرؤى الحسنة بقلبك قبل بصرك لتعلم كيف يُجازى الصالحون العاملون المثابرون درجات أعظم من درجات غيرهم:

١ – قال صالح البراد[١]:

رأيت زرارة بن أوفى[٢] بعد موته فقلت: رحمك الله ماذا قيل لك وما ذا قلت؟ فأعرض عني.

قلت: فماذا صنع الله بك؟ قال: تفضل علي بجوده وكرمه.

قلت: فأبو العلاء بن يزيد أخو مطرف[٣]؟ قال: ذاك في الدرجات العلى. قلت: فأي الأعمال أبلغ فيما عنكم؟

= الأرواح: ٧٧، وقال: قال الحافظ أبو عبدالله المقدسي: لا أعلم بإسناد هذا الحديث بأساً، وقد أخرجه الحافظ أبو نعيم.

(١) لم أعثر له على ترجمة.

(٢) زرارة بن أوفى العامري الحَرَشي، أبو حاجب، قاضي البصرة، ثقة عابد، مات في الصلاة سنة ٩٣، انظر «التقريب»: ٢١٥.

(٣) هو أبو العلاء يزيد وليس ابن يزيد، بن عبدالله بن الشخير، أحد العباد الزهاد، توفي سنة ١١١، انظر أخباره في «صفة الصفوة»: ٣/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

قال: التوكل وقصر الأمل[١].

٢ـ ولما مات محمد بن سيرين[٢] حزن عليه بعض أصحابه حزناً شديداً، فرآه في المنام في حال حسنة، فقال: يا أخي قد أراك في حال يسرني فما صنع الحسن؟[٣]، قال: رفع فوقي بسبعين درجة. قلت: ولمَ ذلك وقد كنا نرى أنك أفضل منه؟ قال: ذاك بطول حزنه[٤].

٣ـ ولما ماتت رابعة[٥] رأتها امرأة من أصحابها وعليها حلّة استبرق وخمار من سندس، وكانت كفنت في جبة وخمار من صوف، فقالت لها: ما فعلت الجبة

---

(١) «الروح»: ٣٦.

(٢) محمد بن سيرين الأنصاري بالولاء، أبو بكر البصري. ثقة ثبت عابد كبير القدر، مات سنة ١١٠، وانظر «التقريب»: ٤٨٣.

(٣) الحسن بن يسار البصري الأنصاري بالولاء، ثقة فقيه، فاضل مشهور، مات سنة ١١٠ وقد قارب التسعين. المصدر السابق: ١٦٠.

(٤) «الروح»: ٣٧.

(٥) هي رابعة العدوية العابدة المشهورة. انظر أخبارها في «صفة الصفوة»: ٤/٢٧ ـ ٣١.

التى كفنتك فيها وخمار الصوف؟ قالت: والله إنه نزع عني، وأبدلت به هذا الذي ترين عليّ، وطويت أكفاني، وختم عليها ورفعت في عليين ليكمل لي ثوابها يوم القيامة.

قالت: فقلت لها: لهذا كنت تعملين أيام الدنيا.

فقالت: وما هذا عندما رأيت من كرامة الله لأوليائه!

فقالت لها: فما فعلت عبدة بنت أبي كلاب[١]؟ فقالت: هيهات هيهات، سبقتنا والله إلى الدرجات العلى.

قالت: قلت: وبم وقد كنت عند الناس أعبد منها؟ فقالت: إنها لم تكن تبالي على أي حال أصبحت من الدنيا أو أمست.

فقلت: فما فعل أبو مالك؟ تعني ضيغماً[٢].

---

(١) في «صفة الصفوة»: ٤/ ٣٤ عبيدة بنت أبي كلاب، وقد كانت من العابدات الزاهدات، انظر ترجمتها هناك.

(٢) أبو مالك العابد، كان ورده كل يوم أربعمائة ركعة. انظر ترجمته في «صفة الصفوة»: ٣/ ٣٥٧ ـ ٣٦٠.

فقالت: يزور الله تبارك وتعالى متى شاء.

قالت: قلت: فما فعل بشر بن منصور[١]؟ فقالت: بخ بخ[٢]، أعطي والله فوق ما كان يأمل.

قالت: قلت: مريني بأمر أتقرل به إلى الله تعالى.

قالت: عليك بكثرة ذكر الله فيوشك أن تغتبطي بذلك في قبرك[٣].

٤- وقال قبيصة بن عقبة[٤]:

رأيت سفيان الثوري[٥] في المنام بعد موته فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال:

---

(١) بشر بن منصور السَّليميّ، أبو محمد الأزدي البصري، صدوق، عابد زاهد، مات سنة ١٨٠. انظر «التقريب»: ١٢٤.

(٢) كلمة تقال عند الاستحسان.

(٣) «الروح»: ٣٨.

(٤) قبيصة بن عقبة بن محمد السوائي، أبو عامر الكوفي، صدوق، مات سنة ١١٥. انظر «التقريب»: ٤٥٣.

(٥) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، أبو عبدالله، ثقة حافظ، فقيه عابد، إمام حجة، مات سنة ١٦١ وله أربع وستون سنة. انظر «التقريب»: ٢٤٤.

نظرت إلى ربي عياناً فقال لي
هنيئاً رضائي عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قواماً إذا الليل قد دجا
بعبرة محزون وقلب عميد [١]
فدونك فاختر أي قصر تريده
وزرني فإني منك غير بعيد[٢]

٥ـ وكان شعبة بن الحجاج[٣] ومسعر بن كدام[٤] حافظين، وكانا جليلين، فقال أبو أحمد البريدي[٥]: فرأيتهما بعد موتهما فقلت: أبا بسطام[٦] ما فعل الله بكِ؟

---

(١) أي القلب المُوْجَع: انظر «لسان العرب»: ع م د.
(٢) «الروح»: ٤١.
(٣) شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي بالولاء، أبو بسطام الواسطي ثم البصري، ثقة حافظ متقن، كان أمير المؤمنين في الحديث، وهو أول من فتش بالعراق عن الرجال وذب عن السنة، وكان عابداً، مات سنة ١٦٠. انظر «التقريب»: ٢٦٦.
(٤) مسعر بن كدام بن ظهير الهلالي، أبو سلمة الكوفي، ثقة ثبت فاضل، مات سنة ١٥٣. المصدر السابق: ٥٢٨.
(٥) لم أعثر له على ترجمة.
(٦) هذه كنية شعبة.

فقال: وفقك الله لحفظ ما أقول:

حباني إلهي في الجنان بقبة
لها ألف باب من لجين وجوهرا
وقال لي الرحمن ياشعبة الذي
تبحر في جمع العلوم فأكثرا
تنعم بقربي إنني عنك ذو رضاً
وعن عبديَ القوام في الليل مسعرا
كفا مسعراً عزاً بأن سيزورني
وأكشف عن وجهي الكريم لينظرا
وهذا فعالي بالذين تنسكوا
ولم يألفوا في سالف الدهر منكرا[1]

٦ـ وقال بعض أصحاب ابن جريج[2]:

---

(١) «الروح»: ٤٢.

(٢) عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج الأموي بالولاء، المكي، ثقة فقيه فاضل، مات سنة ١٥٠ وقد جاز السبعين. انظر «التقريب»: ٣٦٣.

رأيت كأني جئت إلى هذه المقبرة التي بمكة فرأيت على عامتها سرادقاً[١] ورأيت منها قبراً عليه سرادق، وفسطاط[٢] وسدرة[٣] فجئت حتى دخلت فسلمت عليه، فإذا مسلم بن خالد الزَّنجي[٤]، فسلمت عليه وقلت: يا أبا خالد ما بال هذه القبور عليها سرادق وقبرك عليه سرادق وفسطاط وفيه سدرة؟.

فقال: إني كنت كثير الصيام.

فقلت: فأين قبر ابن جريج وأين محله؟ فقد كنت أجالسه، وأنا أحب أن أسلم عليه.

فقال هكذا بيده: هيهات، وأدار إصبعه السبابة، وأين ابن جريج، رفعت صحيفته في عليين[٥].

---

(١) قال محقق الكتاب: السرادق كل ما حاط بالشيء من حائط أو مضرب.

(٢) قال محقق الكتاب: الفسطاط بيت من شعر، أو مكان يجتمع فيه الناس لعرس أو مأتم أوغيرهما.

(٣) قال محقق الكتاب: السدرة: شجرة النبق.

(٤) مسلم بن خالد المخزومي بالولاء المكي، المعروف بـ(الزَّنجيّ)، فقيه، صدوق، مات سنة ١٧٩. انظر «التقريب»: ٥٢٩.

(٥) «الروح»: ٤٤.

وهاته المنامات لايقطع بها على الدرجات والتفاوت بين من ذُكروا لكن يستأنس بها ويرغب في سماعها لما تبثه من حماس إيمانيّ.

إذاً كل ما أوردته من آيات وأحاديث، وما سقته من رؤى ـ يستأنس بها ـ دال على التفاوت في النعيم المقيم، وهذا هو الذي حدا بالعباد والزهاد والمجاهدين إلى استفراغ الوسع في طاعة الله تعالى، والتنافس في ذلك تنافساً عظيماً.

هذا الحارث بن هشام ـ رضي الله عنه ـ أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه، ثم إنه خرج للجهاد في الشام بعد وفاة رسول الله ﷺ: «فجزع أهل مكة وخرجوا يشيعونه، فوقف ووقفوا خلفه يبكون، فقال: والله ما خرجت رغبة بنفسي عنكم، ولا اختيار بلد غير بلدكم، ولكن هذا الأمر[١] كان فخرجت فيه رجال من قريش ما كانوا من ذوي أسنانها ولا في بيوتها، وأصبحنا ـ والله ـ لو أن جبال مكة ذهباً فأنفقناها في سبيل الله ما أدركنا

---

(١) أي الإسلام.

يوماً من أيامهم، فنلتمس أن نشاركهم في الآخرة، فاتقى الله امرؤ، فتوجه غازياً إلى الشام، واتّبعه ثَقَله[١]، فأصيب شهيداً، رضي الله عنه.

وكان الإمام ابن عون[٢] عابداً زاهداً، وكان أحد أصحابه يقول: «إني لأعرف رجلاً منذ عشرين سنة يتمنى أن يسلم له يوم من أيام ابن عون فما يقدر عليه»[٣].

وكان الإمام سفيان الثوري[٤] يقول:

«إني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة مثل ابن المبارك[٥] فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام»[٦].

---

(١) أي أهله ومتعلقاته.

(٢) عبدالله بن عون بن أرْطبان، الإمام القدوة، عالم البصرة، المزني بالولاء، البصري الحافظ، مات سنة ١٥١ وقد عاش خمساً وثمانين سنة، انظر أخباره في «سير أعلام النبلاء»: ٦/ ٣٦٤ـ٣٧٥.

(٣) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٤٤.

(٤) سبقت ترجمته.

(٥) عبدالله بن المبارك الحنظلي بالولاء التركي، شيخ الإسلام، الإمام العالم العامل الغازي، ولد سنة ١١٨، وتوفي سنة ١٨١، رحمه الله تعالى. انظر أخباره في «سير أعلام النبلاء»: ٨/ ٣٧٨ـ٤٢١.

(٦) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٥٥.

هذا يقوله سفيان وهو نفسه كان عجباً في الزهد والعبادة، بل قال أحد السلف: «سفيان في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما»، وقال آخر: «إني لأحسب أنه يُجاء غداً بسفيان حجة من الله - تعالى - على خلقه، يقول لهم: لم تدركوا نبيكم قد رأيتم سفيان»[١]، فكيف يكون عبدالله بن المبارك إذاً، رضي الله عنهما ورحمهما.

فعلى هذا فينبغي لثقات عصرنا أن يسعوا بكل ما أوتوا من قوة وأعطوا من حظوظ ومواهبَ إلى تلك الدرجات العاليات، وترك السعي إليها مظهر من مظاهر العجز العظيم ولا شك؛ فالمرء في هذه الدار لا يرضى أن يسبقه قِرنه بمرتبة ولا بمال، ويحزن إن رأى أمثاله في العمر والمواهب يتجاوزونه في أي باب من أبواب الدنيا، أفيرضى أن يسبقه أقرانه إلى الجنة والدرجات العالية وهو قابع عاجز عن أن يسير في ركابهم ويتشبه بهم؟!.

لكن الدنيا زُخرفت وأظهر زخرفها، والآخرة

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٥٨٣.

غاب جمالها عن ناظرها، فسعى الموفقون إلى عِظَم الغائب، وبقي المحرومون في زخرف الحاضر الذاهب.

ثالثاً: ترك العمل واستمراء العجز قد يؤدي إلى الانسلاخ من الثبات، والعياذ بالله:

وذلك لأن العاجز إن استمرأ عجزه وزُيِّن له حاله وما هو عليه من الراحة وترك المعالي والسعي إليها قد ينسى المعاني العلية وتمحى من ذاكرته بعد أن فقدتها أعضاؤه وجوارحه، وقد يرغب في حال الجاهلين الضالين، فيأنس إليهم ويهش لهم، ويبادر إلى المكث معهم والتأسي بشمائلهم فينسلخ من الالتزام، ويفقد ثباته، ويأوي لكن إلى ركن غير شديد، ويرتكز لكن إلى باطل متهزم رعديد، فيالله كم فاته من خير ولحقه من شر، وكم فارق من خِلٍّ تقيّ وأنِس بشيطان غَوِيّ.

وهذا ليس من باب المبالغة بل هي حقيقة كائنة في دنيا الناس؛ أعرف رجلاً كان تقياً ثقة لكنه عاجز لايستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً، ثم إنه أخذ في الارتكاس حتى أصبحت حاله مثل حال الفجار، بل إنه

قد ترك الصلاة كلية، والعياذ بالله تعالى.

وأعرف آخر كان ثقة عاملاً لكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه وماله وتجارته فعجز وتراجع، ثم تراجع أكثر فأكثر حتى صار من أبناء الدنيا الفانين في هواها، العاملين لمرضاتها، حتى إنك إن رأيته لم تعد ترى فيه ذلك التميز الذي كان يفارق به سائر أبناء الدنيا بل أصبح كسائر الضعاف.

وهذا الانسلاخ من الثبات الذي يعقب العجز نتيجة شبه محتومة تلازم العاجز، وذلك لأنه يصبح فارغاً لاهمَّ لديه ولا عمل يشغله، ولا فكر يملأ عليه حياته، والفراغ آفة عظيمة فإن أضيف إليها المال والشباب كان ذلك أدعى لفساد قلب المرء وانسلاخه من ثباته:

إن الشباب والفراغ والجَدَة[١]

مفسدة للمرء أيُّ مفسدة[٢]

---

(١) أي السعة والمال.

(٢) انظر كتاب «من أخبار المنتكسين» لصالح العصيمي، و«الثبات» لواضع هذه الرسالة.

مظاهر العجز

إن مظاهر العجز تختلف في طبيعتها وحدّتها من عاجز لآخر، وسأورد عدداً منها يتضح بها المَراد، إن شاء الله تعالى:

أولاً: ترك الدعوة إلى الله - تعالى - والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر:

في المجتمع فئات عظيمة من الصالحين الذين يرجون الله تعالى والدار الآخرة، ولعلهم يأتون بنوافلَ كثيرة من صلاة وصيام لكنهم غير عاملين بهذا الصلاح للتمكين لدين الله - تعالى - في الأرض، فتجدهم قد انكفأوا على أنفسهم، واعتزلوا في بيوتهم فلايدعون أحداً، ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر إلا نادراً، وتراهم يذهبون إلى أعمالهم بجد ونشاط لكن

لا يحركون ساكناً مع زميل عمل ضَلَّ، ولا صالح مَلَّ، والناس متعطشون لمواعظهم ونصحهم ودعوتهم لكنهم لايفعلون.

ولو كانوا في كل أحوالهم كذلك لالتُمست لهم الأعذار؛ لكنهم متثاقلون عند الدعوة إلى دين الله تعالى، نشطون في ميادين تحصيل الدرهم والدينار، قد قطعوا عامة نهارهم وطائفة كبيرة من ليلهم في تحصيل الدنيا والميلِ إلى ملذاتها وشهواتها، وانصرفوا عن المعاني العليّة.

وتجد آخرين ليسوا من همٍّ جمع المال في شيء لكنهم منصرفون إلى التميز في أعمالهم، والاجتهاد في تخصصاتهم، حاصرين أنفسهم في ذلك، وقد يكون عملهم هذا نافعاً للإسلام لكنه نفع محدود مرجوح بغيره من المنافع العظيمة التي يمكن أن تحقق على يد تلك الفئة لوصرفت ـ إضافة إلى تميزها في تخصصها ـ جهدها في سلوك السبيل القويم الذي يعود على الإسلام والمسلمين بأعظم النتائج.

والناظر في سيرة المصطفى ﷺ يجد غير ذلك، فقد كانت حياته دعوة إلى الله ـ تعالى ـ، وقد سخر كل جوانبها لله ـ تعالى ـ ولنصرة الدين، وحرّض أصحابه وعلمهم أن المسلم لابد أن يكون مشاركاً بقوة في تسيير الحياة وإدارة شؤونها.

وسأورد لك ـ يا أخي ـ مايشبه الفهرست لحياة النبي ﷺ لتعلم كيف دعا إلى الله ـ تعالى ـ، وصبر على الإيذاء، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وجاهد، فكانت حياته كلها مثالاً لما يجب أن يكون عليه المسلم الثقة العامل:

١ـ تعبده ﷺ في غار حراء الليالي الطوال قبل البعثة.

٢ـ نزول القرآن، وما كان يقاسيه حال نزوله عليه ﷺ.

٣ـ فترة الوحي وتأذيه بذلك ﷺ.

٤ـ دعوته خديجة وعلياً وأبا بكر ومن بعدهم ـ رضي الله عنهم ـ إلى الإسلام.

٥ـ تخفيه بالدعوة ﷺ قرابة ثلاث سنين.

٦ـ صدعه بالدعوة ﷺ وما لاقاه من جراء ذلك من قبل قومه، وصعوبة ذلك على نفسه الشريفة ﷺ.

٧ـ مالاقاه الصحابة رضي الله عنهم من الإيذاء والتعذيب، وصعوبة ذلك على نفسه الشريفة ﷺ.

٨ـ مالاقاه النبي ﷺ من الاستهزاء والتكذيب والرمي بالتهم الكثيرة، بل تعدى ذلك إلى الاعتداء الجسديّ.

٩ـ إغراء النبي ﷺ بالمال والنساء.

١٠ـ محاصرة المشركين للنبي ﷺ والصحابة في شِعب أبي طالب، وتجويعهم، ومقاطعتهم.

١١ـ تعنت المشركين وكثرة أسئلتهم للنبي ﷺ على وجه التعجيز.

١٢ـ وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها، وأثر ذلك على النبي ﷺ.

١٣ـ ما جرى له ﷺ في الطائف، وكان حادثاً صعباً.

١٤ـ عَرْض الرسول ﷺ نفسَه على قبائل العرب، وصدهم عنه وتكذيبهم له.

١٥- هجرة النبي ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ إلى المدينة، ومحاولة قريش قتله ﷺ مراراً.

١٦- عداوة المنافقين وكيدهم له ﷺ، ومحاولة قتله.

١٧ـ عداوة اليهود وكيدهم له ﷺ، ومحاولة قتله.

١٨ـ إنكار اليهود نبوتَه ﷺ وتكذيبهم له.

١٩ـ تعسف اليهود وكثرة أسئلتهم للنبي ﷺ على وجه العنت والتكذيب.

٢٠ـ الغزوات التي قادها النبي ﷺ وما جرى له فيها خاصة أحد والخندق وحنين.

٢١ـ ما أوذي به ﷺ في عرضه.

٢٢ـ ما أوذي به ﷺ من بعض جفاة الأعراب.

٢٣ـ صبره ﷺ على استشهاد أقربائه وأصحابه رضي الله عنهم.

٢٤ـ صبره الشديد على الجوع ﷺ.

٢٥- ما عاناه ﷺ في مرضه وسكرات موته، بأبي هو وأمي ﷺ (١).

فالناظر فيما سردته آنفاً يعلم أنه ما من جانب من جوانب الحياة إلا وعانى فيه ﷺ أشد المعاناة، في نفسه، وأهل بيته، وأصحابه، وذوي قرابته، ودعوته، . . . إلخ، ولم يؤد كل ذلك إلا إلى صبر جميل، وعمل طويل، وتسليم جليل، ورضىً كبير، ولم تُحفظ عنه ﷺ ضجرة، ولا رؤي منه ﷺ توان ولا تقصير بل قام بأعباء الدعوة على أحسن قيام وأعظَمه.

فما يمكن أن يلاقيه الثقات اليوم جزء يسير مما لاقاه النبي ﷺ، فعليهم ألا يعجزوا فيملوا ويتركوا دعوتهم ودينهم يتناوشهما الكفار والفجار.

وعلى هذا سار سائر أصحابه من بعده ﷺ، وأعلام السلف الصالح ومن تبعهم إلى يومنا هذا: هجروا الراحة

---

(١) هذا الفهرست منقولة أحداثه من «السيرة النبوية» لابن هشام ـ رحمه الله تعالى ـ بتصرف.

وتحملوا الأمانة، وضحوا بالغالي والنفيس حفظاً لدعوة الله ـ تعالى ـ وقياماً على مصالح الأمة.

والعجيب أن تارك الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تجده ـ في أكثر الأحيان ـ مقراً بعجزه خجلاً منه، متوارياً عنه بل تراه يعتذر بأعذار واهيات أو هي قريبة من الواهيات، رامياً الآخرين بأنهم سبب عجزه وضعفه، وقد يعتذر بأن لديه مشكلة أو اثنتين، وهذا منه أعجب؛ إذ مَن من خلق الله تعالى من بني آدم يخلو من مشكلات وهموم، هذا النبي ﷺ ـ وقد وصفت حاله ـ لم يترك الدعوة ولم ييأس ولم يعجز بأبي هو وأمي ﷺ، ويأتي بعض ثقات الدعاة في هذا الزمان إن أوذي إيذاءً يسيراً من زوجه أو والديه أو أولاده، أو قلّ ماله، أو ابتلاه الله ـ تعالى ـ بشيء من الخوف والجوع والمرض ترك المعاني العلية فلم يسعَ لها، واعتذر عنها بأنه مشغول بمشكلات عويصة !! فيالله العجب ! ألم يقل الله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن

قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾[1]، نعم إن النفس البشرية عندما تتعرض للمشكلات فإنها تتأثر ولابد، ولكن لابد أن يكون هذا التأثر مكتوماً في نفس الإنسان لا يظهره للناس إلا في النادر وعند وجود حاجة لهذا الإظهار، ثم إنه يمضي بعد ذلك قُدُماً في دعوته وإرشاده الناس ولا يمل ولا يكل بسبب ما جرى له من مشكلات يتصور أنها عقبات وليست هي كذلك ولا ينبغي لها أن تكون، وليسأل نفسه هل ترك عمله الدنيوي لمَّا تعرض لهاته المشكلات وتلك المصائب؟!! فلما لم يفعل كانت الدعوة أحق وأولى بتلك المعاملة من غيرها من أشغال الدنيا، والله الموفق.

ثانياً: الضنّ بالأموال أو تشوش الإنفاق:

الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ تفتقر إلى المال كل الافتقار، خاصة في حياتنا المعاصرة، إذ احتيجت الأموال في شتى مرافق الحياة.

وانظر إلى كلفة القمر الصناعي الذي يبث

---

(١) سورة العنكبوت.

الفضيلة ويحارب ما يُبث من فجور وإلحاد، أو إلى مجمع متكامل في بلد إفريقي أو آسيوي فقير يكون ذلك المجمع نواة قوية في محاربة التنصير والهدم العقائدي والأخلاقي، أو حاجة طائفة مستذلّة مستضعفة في مشارق الأرض ومغاربها إلىَ ما تلمّ به شعثها وتصلح شأنها، أو مشاريعَ استثمارية صناعية وزراعية في بلدان فرض عليها المستعمر ذلاً وهواناً عن طريق «البنك الدولي» تارة، أو المساعدات المشروطة تارة أخرى.

والناظر في بيئتنا القريبة يمكن أن يبصر أعمالاً هي في أمس الحاجة إلى المال كطباعة الكتب المهمة النافعة للعامّة، ورعاية حلقات تحفيظ القرآن، وإمداد القرى والبوادي بما يصلح دينهم ويحفظ عليهم دنياهم، والإسهام في المراكز المدرسية التي تحفظ على الشباب دينهم وتنفعهم في دنياهم. . . إلخ.

ولست بحاصر حاجةَ الدعوة إلى المال وصور تلك الحاجات مهما سطَرت من كلمات لكنها أمثلة فقط.

والسؤال الملح: أين التاجر المسلم الذي يقرض

الله ـ تعالى ـ بلا حساب، ولا مشارطة، ولا تردد، ولا ملل ؟ هو موجود لكنه قليل يكاد يصل حدّ الندرة، والأكثر إنما يتردد في شهواته، ويرتاض في مزعوم جناته، وإن أعطى فهو يعطي القليل الذي لايشفي العليل ولا يروي الغليل.

وهناك فئة من صالحي التجار إن حُدّثوا عن صور الإنفاق السابقة الذكر أعرضوا عنها ورغبوا في صور أخرى للإنفاق مرجوحة مثل إقامة الجوامع الكبار في بلدهم المليء بالجوامع ـ والحمد لله ـ فهو يكاد يكون غير محتاج إلى زيادة منها خاصة في المدن الكبرى، أو أنه يرغب في توزيع المال على من يظن أنهم بهم فاقة ويعرض عن آخرين هم في محنة عظيمة، فالأولويات عنده مشوشة غير مرتبة ولا واضحة.

ولقد كان في السلف تجار عظام لكنهم عرفوا كيف يعاملون الله ـ تعالى ـ ويقرضونه، وينصرون الله ـ تعالى ـ ودينه بأموالهم، وهذا مثال من أولئك التجار الصالحين حقاً ألا وهو عثمان، رضي الله تعالى عنه، فقد أنفق في سبيل الله ـ تبارك وتعالى ـ

أموالاً عظيمة جعلت النبي ﷺ يعجب منها، ويثني على عثمان غاية الثناء، وإنفاقه معلوم لكني سأورد صوراً منه مذكراً بحاله رضي الله عنه.

لما حُصر عثمان ـ رضي الله عنه ـ من قبل الخارجين عليه قال لهم:

«أنشدكم الله: أتعلمون أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس فيها ماء عذب غير بئر رومة فقال: «من يشتريها فيكون دلوه كدلاء المسلمين، وله في الجنة خير منها؟» فاشتريتها، وأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها حتى أشرب من الماء المالح؟ قالوا: اللهم نعم.

فقال: أنشدكم الله والإسلام: هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله فقال رسول الله ﷺ: «من يشتري بقعة بخير له منها في الجنة فاشتريتها وزدتها في المسجد وأنتم تمنعوني اليوم أن أصلي فيها؟ قالوا: اللهم نعم[1].

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ١/ ١٨٦أ، و«البداية والنهاية» ٧/ ١٧٨.

وقصة شرائه بئر رومة تدل على مروءة وفضل منه، رضي الله عنه؛ إذ لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء، وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة، وكان يبيع القربة منها بمُد، فقال رسول الله ﷺ: «تبيعها بعين في الجنة»، فقال: ليس لي يارسول الله عين غيرها، لا أستطيع ذلك.

فبلغ ذلك عثمان فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ﷺ فقال: أتجعل لي مثل الذي جعلت له: عيناً في الجنة إن اشتريتها ؟ قال: «نعم»، قال: قد اشتريتها وجعلتها للمسلمين[1].

وقال أبوهريرة رضي الله عنه:

«اشترى عثمان من رسول الله ﷺ الجنة مرتين: يوم رومة ويوم جيش العُسرة»[2].

وقال عثمان رضي الله عنه:

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٧٢ أ.

(٢) المصدر السابق.

«ولا مرت بي جمعة منذ أسلمت إلا وأنا أعتق فيها رقبة إلا أن لايكون عندي فأعتقها بعد ذلك»[١].

وقد جهز جيش العُسرة جيش غزوة تبوك، وإنما سُمي بذلك لعُسرة نفقته ووقته؛ إذ كان في الحر الشديد، فأتى بأموال عظيمة هائلة جعلت النبي ﷺ يقول: «ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم»[٢].

وتوالت قوافل المنفقين تعطي وتبذل لدين الله ـ تعالى ـ مقتفية أثر عثمان وصحبه رضي الله عنهم، مؤثرة على نفسها ولو كان بها خصاصة.

هذا الذي ينبغي أن يكون عليه صاحب المال: مسارعةً إلى نصرة الله ورسوله ودينه بكل ما يملك، لا أن يعطي الفضول ثم يرغب بعد ذلك أن يكون كتجار السلف ـ رضي الله عنهم ـ الذين أقرضوا الله قرضاً عظيماً، هيهات !!.

ولايُظَنّ أنّ كلامي قاصر على أصحاب الأموال

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٧١ أ.

(٢) المصدر السابق.

العظيمة بل لابد من مساهمة أفراد المجتمع الإسلامي عامة في الإنفاق، وربّ درهم سبق مائة ألف درهم، وكان الصحابي يأتي بتمر قليل يضحك منه المنافقون لكن الله ـ تعالى ـ خلّد ذكره في كتابه، وذم المنافقين وتوعدهم على سخريتهم عذاباً عظيماً.

عن أبي مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال:

«لما أمرنا بالصدقة ـ يعني في غزوة تبوك ـ كنا نتحامل[1]، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه[2]، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رئاء، فنزلت ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ ﴾ الآية[3]»[4].

---

(١) أي يحمل بعضنا لبعض بالأجر. فتح الباري: ٨/ ٣٣١.

(٢) ذكر ابن حجر أن المقصود هو عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه. فتح الباري: ٨/ ٣٣١.

(٣) سورة التوبة: آية ٧٩.

(٤) صحيح البخاري: كتاب التفسير: باب ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ.. ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

«كان عثمان بن عفان قد جهز عيراً للشام، مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية، فتصدق بها، ثم تصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم جاء بألف دينار فنثرها في حجره ﷺ ثم تصدق وتصدق، حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى النقود.

وجاء عبدالرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة، وجاء أبوبكر بماله كله، ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله.. وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بمال كثير، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة، كلهم جاءوا بمال، وجاء عاصم بن عدي بتسعين وسقاً من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها، حتى كان منهم من أنفق مداً أو مدين لم يكن يستطيع غيرها، وبعثت النساء ما قدرن عليه من مسك ومعاضد وخلاخل وقرط وخواتم، ولم يمسك أحد يده، ولم يبخل بماله إلا المنافقون»[1].

وفي البلدان الإسلامية الفقيرة يتبرع أفراد من

---

(١) «الرحيق المختوم»: ٥١٢ - ٥١٣.

الناس بقروش قليلة لكن لها أثراً عظيماً في النفوس ويبارك الله فيها فإذا هي تقوم مقام الأموال الضخمة.

ثالثاً: المواهب غير المستغلة:

قسم الله ـ تبارك وتعالى ـ القدرات والمواهب بين الناس، وخص بعض الناس بقدرات أكبر ومواهبَ أعظمَ وأشمل، فإن وُفقوا لاستغلال تلك المواهب فهو الفوز الكبير، وإلا فقد خسروا وفشلوا وعجزوا.

وإليك أخي مثالين على هذا التقصير في استغلال المواهب:

أ- عرفت رجلاً صالحاً يتقد ذكاء، ويشتعل فطنة ونباهة، فقد وهب التفوق الذهني حقاً، وهو موظف مرموق، فأخذت أقنعه أن يبادر لاستغلال ذلك الذكاء النادر، ووضحت له بعض الطرق المناسبة له، وأشجعه مراراً وتكراراً لكنه ـ مع الأسف الشديد ـ لم يستجب، وأصبحت حياته دائرة بين بيته وعمله لايتجاوزهما إلا نادراً.

وأنا موقن أنه لم يُقعده إلا العجز المطلق غير

المرتبط بظرف أو سبب، ولاحول ولا قوة إلا بالله.

ب ـ صاحب لي درس العلوم الشرعية منتسباً، وهو أخ صالح داعية ـ فيما أحسبه، والله حسيبه ـ كنت قد ألححت عليه أن يخطب الناس أو يعظهم بموعظة، أو يقرأ لهم في كتاب لكنه يحجم كثيراً ويخجل أن يتقدم، ويتهيب مع قوة وشجاعة فيه، وتكرّ عليه السنون وهو لم يستفد من علمه الذي تعلمه تمام الاستفادة بل لعله قد نسي أكثره.

وهناك أمثلة كثيرة لأصحاب المواهب المحجمين عن استغلال مواهبهم التي حباهم الله ـ تعالى ـ إياها ما منعهم منها إلا العجز.

ألم تر إلى نبيّ الله يوسف لمّا علم من نفسه موهبة حُسن الإدارة للأرزاق قال للملك: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1]، فلم يخجل ولم يتوار ﷺ.

ألم يأتك نبأ النبيّ ﷺ كيف قسّم الأعمال على

---

(١) سورة يوسف: آية ٥٥.

أصحابه بحسب مواهبهم وقدراتهم فاستجابوا ولم يتمنعوا أو يخجلوا؛ فهذا خالد القائد الدائم - حتى عندما لم يُوَلّ قائداً في مؤتة بادر واستلم القيادة لمّا عرف من نفسه الكفاءة[١] - بورك له في جهاده لوصف النبي ﷺ له بأنه سيف الله المسلول[٢]، وهذا زيد بن ثابت - رضي الله عنه - يتعلم اللغات الأجنبية[٣]، وأبي بن كعب يبرع في القرآن حتى قال النبي ﷺ «أقرؤكم أبيّ»[٤]، ومعاذ بن جبل يبرع في الفقه حتى يوصف بأنه أعلم الصحابة بالحلال والحرام[٥]، وهكذا. . .

ألم تعلم أن مصعباً - رضي الله عنه - كان سفيراً،

---

(١) «البداية والنهاية»: ٧/ ١١٣، وقد توفي رضي الله عنه بحمص وقيل بالمدينة، سنة ٢١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق: ٨/ ٢٩، وتوفي رضي الله عنه سنة ٤٥ بالمدينة.
(٤) المصدر السابق: ٧/ ٩٧، وقد توفي رضي الله عنه سنة ١٩ من الهجرة بالمدينة. والحديث أخرجه الترمذي في سننه: كتاب المناقب: باب مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم.
(٥) المصدر السابق: ٧/ ٩٥، وقد وتوفي رضي الله عنه سنة ١٨ بطاعون عمواس بالشام.

وأبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ كانا وزيرين، وأن هناك كتبة وحي يُسرت لهم الكتابة ووهبت لهم.

ثم إنه على مدار التاريخ تقدم أصحاب المواهب ولم يحجموا فسُطرت سيرهم بأحرف من نور، ومات الخاملون المحجمون فلم يدر بهم أحد، ولم ينالوا من الأجر ـ أجر الإقدام على معالي الأمور ـ ما ناله المتصدرون لنفع الناس، والله أعلم.

رابعاً: تشوش الأولويات:

وهذا من أعظم مظاهر العجز الذي يلحق الثقة؛ إذ يظل يدور عامة حياته في حلقة مفرغة من الأعمال المفضولة لايخرج منها إلى الأعمال الفاضلة إلا قليلاً.

وهذا التشوش ـ على أنه عجز ـ هو من أساليب إبليسَ الذي يلبس بها على الخلق؛ إذ يزين لهم طريق الشر، فإن عجز عنهم يزين لهم طريقاً للخير ذا حسنات قليلة مفضولة حتى لا يسلكوا طريقاً فيه حسنات عظيمة.

وإن أردت أن تطّلع على صورة واضحة على التشوش في ترتيب الأولويات فانظر إلى بعض من يريد

أن يبني بيتاً؛ فإنه يَعْمد إلى تسخير جميع قواه ومصالحه الحيوية ليصبّها في بناء بيته، وتراه يؤخر أموراً لا تؤخر، بل تراه يعرض عن كثير من الواجبات بحجة أنه مشغول ببناء بيته، فيمكث على ذلك سنوات قد تطول فيعتاد أثناء تلك السنوات الطويلة الإخلاد إلى الأرض ونسيان المعاني العلية، وقد يؤدي به ذلك إلى العجز الدائم الكلي، نسأل الله العافية. .

وناهيك بمن يصرف عمره متشاغلاً بما زعمه حقوقاً للزوجة والأولاد تاركاً الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ وضارباً بمصالح الأمة عُرضَ الحائط، ولو أعطاهم حقهم باعتدال كما صنع النبي ﷺ وانصرف إلى أولويات أخرى مهمة لحفظ الله ـ تعالى ـ له أهله وأعظم له أجره.

خامسا: طعن الثقة في إخوانه الثقات:

إن من أعظم العجز وأوضحه وأبينه نَذْرَ الثقة نفسه لفضح عيوب الآخرين لا سيما إن كانوا ثقات[١]،

---

(١) من يصنع ذلك فليس بثقة ولا نعمت عينه بهذا الشرف، لكني =

وقيامه بهذا في المحافل والمجامع ووسائل الإعلام، ألا يعلم أن مخالفة الثقة لمن هو أوثق منه أو مخالفته لمجموعة من الثقات شذوذ ؟! وليتأكد أن الشيطان قد سوّل له وزيّن هذا الطعن بحجة الجرح والتعديل والقيام بتبيين الحق، إذ قد يكون بعض ما يقوله الطاعن حقاً لكنه مغموس في بحر من التجني والتشفي والهوى، والمقرر من قواعد الإسلام أن الجرح والتعديل إن خولط بهوى وتشفٍّ وتجنٍّ فإن صاحبه مأزور غير مأجور، وقوله مرفوض غير مقبول.

وإن من المصائب حقاً أن يأتي ثقة من الثقات ليرمي مجموعة ضخمة من الناس بجَرح مبني على ظن ووهم، فكيف يصنع هذا المسكين بهم إن جاؤوا يوم القيامة يحاجونه بين يدي الله ـ تعالى ـ وليس مع ذلك المسكين شيء إلا سمعت وظننت وقيل لي ؟! ولم يكن السلف يجرحون ذلك الجرح العام إلا مع طوائفَ

= أصفه بذلك مجاراة لما يظهر منه أمام الناس منَ الادعاء بأنه ثقة.

عقدية غالت في بدعها واتفق أفرادها على أصول بدعية اقتضتَ تعميم الجرح، هذا مع الورع الثخين وتنزيه اللسان عن الجرح ما استطاعوا، أما حال هذا المسكين فكل طوائف السلف يتنزهون عنه وكانوا «على أشد الخوف من هذا الخلق الردي، الذي قد يُلبسه إبليس رداء النصح والأمر بالمعروف، وصاحب القلب الحي يميز هذا عن هذا بوضوح»[١].

ولقد عيب علماء أفاضل بسبب طعنهم في أفراد من العلماء والثقات حتى عرفوا بذلك وشهروا به فعيب عليهم صنيعهم هذا[٢]، فكيف بمن يعيب أمماً وطوائف وجماعات ويطعن فيهم بلا مستند من دين أو عقل، ولا وازع من ورع أو ضمير.

وإن لم يكن قد فاته إلا سلامة صدره على

---

(١) «العوائق»: ١٤٩.

(٢) كما عيب على الإمام السخاويّ إكثاره من الطعن على بعض العلماء والثقات، وانظر كلام الإمام الشوكاني في«البدر الطالع»: ٢/ ١٨٧، وعيب كذلك على ابن حزم الشيء نفسه، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٨/ ١٨٤ وما بعدها.

المسلمين وعظم أجر تلك الفضيلة فقد فاته خير كثير، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال الإمام الذهبي[1] رحمه الله تعالى:

«كلام الأقران إذا تبرهن لنا أنه بهوىً وعصبية لايلتفت إليه، بل يُطوى ولا يُروى... ووقع في كتب التواريخ وكتب الجرح والتعديل أمور عجيبة، والعاقل خصم نفسه، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه، ولحوم العلماء مسمومة... وبكل حال فالجهال والضُلّال تكلموا في خيار الصحابة، وفي الحديث:

«لا أحد أصبر على أذىً يسمعه من الله»، إنهم

---

(١) محمد بن أحمد بن عثمان، الحافظ شمس الدين، أبو عبدالله التركمانيّ الذهبي محدّث العصر، ولد سنة ٦٧٣، واعتنى بطلب الحديث وارتحل من أجله منذ كان عمره ١٨ سنة، وألف مصنفات جامعة نافعة، وتوفي سنة ٧٤٨ بعد أن أضَرّ مدة يسيرة، رحمه الله تعالى، انظر ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى»: ٩/ ١٠٠ ـ ١٢٣، لكن ليُحذر من طعن السبكيّ في الطبقات على شيخه الذهبي فإنه لا يلتفت إليه، والله أعلم.

ليدعون له ولداً وإنه ليرزقهم ويعافيهم»[١].

وقال الإمام الذهبي أيضاً:

«وقد عُلم أن كثيراً من كلام الأقران بعضهم في بعض مهدر لاعبرة به، لا سيّما إذا وثّق الرجلَ جماعةٌ يلوح على قولهم الإنصاف»[٢].

وقال أيضاً:

«وبكلّ حال كلام الأقران بعضهم في بعض يُحتمل، وطيُّه أولى من بثِّه إلا أن يتفق المتعاصرون على جرح شيخ فيُعتمد قولهم، والله أعلم»[٣].

وقال أيضاً:

«وقد عُرف وَهْنُ كلام الأقران المتنافسين بعضهم

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ٦٧٥.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٩٥٨. والحديث في صحيح مسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: باب لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل.

(٣) المصدر السابق: ٣/ ١٣٥٠.

في بعض، نسأل الله السماح»[١].

وقال ابن القيم[٢] رحمه الله تعالى:

«ومن قواعد الشرع والحكمة أيضاً أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر فإنه يحتمل منه ما لا يحتمل لغيره، ويعفى عنه ما لايعفى عن غيره، فإن المعصية خبث، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث بخلاف الماء القليل فإنه لايحتمل أدنى خبث»[٣].

ولقد كان بعض السلف يقول:

---

(١) «العوائق»: ١٤٩ نقلاً عن «عيون الأخبار» لابن قتيبة: ٢/ ١٤.

(٢) الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُرعي الدمشقي، شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي، ولد سنة ٦٩١، وكان جريء الجنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف. غلب عليه حب شيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لايخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك، وكان كثير الصلاة والتلاوة، حسن الخلق، كثير التودد، توفي بدمشق سنة ٧٥١: انظر «الدرر الكامنة»: ٤/ ٢١ ـ ٢٣.

(٣) «العوائق»: ١٣٩ نقلاً عن «مفتاح دارالسعادة» لابن القيم: ١/ ١٧٦.

«ما أحسب أن أحداً تفرغ لعيب الناس إلا من غفلة غفلها عن نفسه»[١].

وفي آخر هذا المبحث لابد أن أنقل كلام أحد السلف خاتماً وناصحاً ومذكراً:

«ما رأيت شيئاً أحبط للأعمال، ولا أفسد للقلوب، ولاأسرع في هلاك العبد، ولا أدوم للأحزان، ولاأقرب للمقت، ولا ألزم لمحبة الرياء والعُجب والرياسة من قلة معرفة العبد لنفسه ونظره في عيوب الناس»[٢].

سادساً: ضعف الثقافة:

الثقافة كلمة معاصرة؛ إذ لم يعرف العرب استعمال هاته الكلمة على هذا النحو التي تدل عليه اليوم، وإن كان للكلمة اتصال بالمعنى اللغوي القديم[٣].

---

(١) المصدر السابق: ١٤٩ نقلاً عن «عيون الأخبار» لابن قتيبة: ٢/ ١٤.

(٢) المصدر السابق: ١٤٧ - ١٤٨ نقلاً من كلام السَّري السقطي رحمه الله.

(٣) انظر «لمحات في الثقافة الإسلامية»: ٢٢ - ٢٦.

وقد حار المفكرون في تعريف جامع للثقافة[١]، ولكن هناك تعريفات قريبة من واقع الكلمة؛ فمنها أنها: «مجموعة من الصفات الخُلُقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته... والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته»[٢].

أو هي «الصورة الحية للأمة، فهي التي تحدد ملامح شخصيتها وقوام وجودها، وهي التي تضبط سيرها في الحياة، وتحدد اتجاهها فيها، إنها عقيدتها التي تؤمن بها، ومبادئها التي تحرص عليها، ونظمها التي تعمل على التزامها، وتراثها الذي تخشى عليه الضياع والاندثار، وفكرها الذي تود له الذيوع والانتشار»[٣].

ويقولون: «تعلّم شيئاً عن كل شيء لتكون مثقفاً، وتعلّم كل شيء عن شيء لتكون عالماً»[٤].

---

(١) «نحو ثقافة إسلامية أصلية»: ١٧.
(٢) «الشخصية الناجحة»: ٢١٣.
(٣) «لمحات في الثقافة الإسلامية»: ١٣.
(٤) «نحو ثقافة إسلامية أصيلة»: ١٨.

والثقافة ضرورة للثقات لاغنى لهم عنها، سواء أكانت ثقافة إسلامية أم ثقافة إنسانية عالمية؛ وذلك حتى يتمكن المرء من معرفة واقعه على ما هو عليه من غير استهانة ولا مبالغة، وهاته المعرفة ضرورة لمواجهة مكر الأعداء وكيدهم وحقدهم على الإسلام والمسلمين، وهي ضرورة للداعية الراجي تقويمَ قومه وردهم إلى حظيرة الإسلام والاقتناع بشعائره وشريعته وتطبيقها في واقع الحياة.

وأعرف ثقات كثيرين لايستطيعون الحديث الجيد عن الإسلام في المجالس، ولا يملكون الوسيلة لرد الشبهات الواردة عليه، ولا يقدرون على مجادلة الضالين وأصحاب الأهواء والشهوات، بل لايستطيعون عرض فضائل الإسلام وسماحته، ولا يتمكنون من إيراد قصص عظائمهم وبطولاتهم وتضحياتهم وجهادهم وزهدهم وعبادتهم.

ولا يُظن بي المبالغة فهذا واقع في دنيا الثقات، ولم آت بشيء ـ في هذا الكتاب ـ يعد من الخيال أو التخرصات أو المبالغات ـ إن شاء الله تعالى ـ فكل ما

ذكرته واقع مفتقر إلى معالجة جادة، ولئن سألت أولئك: لماذا هم كذلك؟ لأجابوا: لأننا لا نعلم ولا ندري فنحن لا نقرأ، إذاً هم رضوا بعجزهم بل بعضهم يفخر به بقوله: أنا لاأحب القراءة ولا أستطيعها.

وهذا إن لم يقرأ ليعلم ويدعوَ عن علم فمن يقرأ إذاً ؟!

الثقة إن تخلف وضعف في باب الثقافة فلم يتزود ولم يُحن ظهره ويسهر ليله فمن يتصدر ويتحدث عن الإسلام ؟! أيتحدث عنه الكفار، أو أعداؤه ممن جهلوه، أو عامة الضعاف الذين ليسوا مؤهلين في الأصل لهذا ؟!.

لهذا تجد أن باب العجز قد فتح على مصراعيه لمثل أولئك الثقات الذين رضوا بأن يعيشوا فارغين لايعرفون عن دينهم وشرعهم وحضارتهم وثقافتهم إلا أقل القليل، والعجب أنهم يدعون بعد ذلك حماية الإسلام والدعوة إليه.

قال الأستاذ القرضاوي:

«هناك عجز في المعرفة بالحاضر المعيش والواقع المعاصر، وهناك جهل بالآخرين نقع فيه بين التهويل والتهوين مع أن الآخرين يعرفون عنا كل شيء وقد كشفونا حتى النخاع، بل هناك جهل بأنفسنا، فنحن إلى اليوم لانعرف حقيقة مواطن القوة فينا ولا نقاط الضعف لدينا، وكثيراً مانضخم الشيء الهين وما نُهوّن الشيء العظيم، سواء في إمكانياتنا أم في عيوبنا»(١).

وقال الأستاذ سيد رحمه الله تعالى:

«لابد أن نحيط بثقافة عصرنا وحضارته، وممارسة هذه الثقافة وهذه الحضارة ممارسة اختبار واختيار، فإننا لا نملك الحكم على ماينبغي أن نأخذ منها وما ينبغي أن ندع إلا إذا سيطرنا عليها بالمعرفة والاختبار، فمن المعرفة والخبرة نستمد سلطان الاختيار»(٢).

لكن ينبغي أن يُعلم «أن المسلم لا يملك أن يتلقى

---

(١) «أولويات الحركة الإسلامية»: ٢١ نقلاً عن «مقومات الداعية الناجح»: ٥٦.

(٢) «المستقبل لهذا الدين»: ١١٨.

في أمر يختص بحقائق العقيدة، أو التصور العام للوجود، أو يختص بالعبادة، أو يختص بالخُلق والسلوك، والقيم والموازين، أو يختص بالمبادىء والأصول في النظام السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، أو يختص بتفسير بواعث النشاط الإنساني وبحركة التاريخ الإنساني إلا من ذلك المصدر الرباني، ولا يتلقى في هذا كله إلا عن مسلم يثق في دينه وتقواه ومزاولته لعقيدته في واقع الحياة.

ولكن المسلم يملك أن يتلقى في العلوم البحتة كالكيمياء والطبيعة والأحياء والفلك والطب والصناعة والزراعة وطرق الإدارة ـ من الناحية الفنية الإدارية البحتة ـ وطرق العمل الفنية، وطرق الحرب والقتال ـ من الجانب الفني ـ إلى آخر مايشبه هذا النشاط، يملك أن يتلقى في هذا كله عن المسلم وغير المسلم، وإن كان الأصل في المجتمع المسلم حين يقوم أن يسعى لتوفير هذه الكفايات في هذه الحقول كلها باعتبارها فروضَ كفاية. . . ولكن إلى أن يتحقق هذا فإن للفرد المسلم أن يتلقى في هذه العلوم البحتة

وتطبيقاتها العملية من المسلم وغير المسلم... وهي لاتتعلق بتكوين تصور المسلم عن الحياة والكون والإنسان، وغاية وجوده، وحقيقة وظيفته، ونوع ارتباطاته بالوجود من حوله بخالق الوجود كله، ولا تتعلق بالمبادىء والشرائع والأنظمة والأوضاع التي تنظم حياته أفراداً وجماعات، ولا تتعلق بالأخلاق والآداب والتقاليد والعادات والقيم والموازين التي تسود مجتمعه وتؤلف ملامح هذا المجتمع[1]، ومن ثَمّ فلا خطر فيها من زَيغ عقيدته أو ارتداده إلى الجاهلية...

إنه قد يطّلع على كل آثار النشاط الجاهلي ولكن لا ليكوِّن منه تصوره ومعرفته في هذه الشؤون كلها إنما ليعرف كيف تنحرف الجاهلية، وليعرف كيف يصحح ويقوِّم هذه الانحرافات البشرية بردها إلى أصولها الصحيحة في مقومات التصور الإسلامي وحقائق العقيدة الإسلامية...

---

(١) ذكر الأستاذ سيد ـ رحمه الله تعالى ـ جوانب كثيرة من الثقافة الإسلامية في كلامه هنا.

إن حكاية أن الثقافة «تراث إنساني» لا وطن له ولا جنس ولا دين هي حكاية صحيحة عندما تتعلق بالعلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية دون أن تجاوز هذه المنطقة إلى التفسيرات الفلسفية «الميتافيزيقية»[(١)] لنتائج هذه العلوم، ولا إلى التفسيرات الفلسفية لنفس الإنسان ونشاطه وتاريخه، ولا إلى الفن والأدب والتعبيرات الشعورية جميعاً، ولكنها فيما وراء ذلك إحدى مصايد اليهود العالمية التي يهمها تمييع الحواجز كلها بما في ذلك ـ بل في أول ذلك ـ حواجز العقيدة والتصور، لكي ينفذ اليهود إلى جسم العالم كله وهو مسترخ مخدر، يزاول اليهود فيه نشاطهم الشيطاني»[(٢)].

سابعاً: ضياع الأوقات:

قد صنفت كتب كثيرة في أهمية الزمان وكيفية الاستفادة منه وضرب الأمثلة على ذلك، وأكثر تلك الكتب نافع مفيد فلا أرى موجباً للتكرار هنا، لكني

---

(١) أي الغيبية.
(٢) «معالم في الطريق»: ١٣٨ ـ ١٤١.

أبين فقط أن من أكثر مظاهر العجز وضوحاً على المرء هو تضييعه زمانه وعدم الاستفادة من ساعات ليله ونهاره، إذ «الساعة من الوقت بالنسبة للإنسان الفعّال لها قيمتها، حتى أن الساعة التي يُظن أنها لايمكن استخدامها في شيء فإن الإنسان الفعال يستخدمها في شيء نافع، فالزمن زمن بالنسبة لكل إنسان ولكن بالنسبة للإنسان الفعّال زمن تتولد فيه حقيقة من حقائق الحياة ولحظات تنبض بالحيوية لالحظات خامدة ميتة، لهذا مما يشق على الإنسان أن يُسأل يوم القيامة عن عمره فيما أفناه»[1].

وهذا ابن عقيل الحنبلي[2] يقول واصفاً أهميةَ استثمار الزمان:

---

(١) «الإنسان حين يكون كَلًّا وحين يكون عدلاً»: ٩.

(٢) الإمام العلامة البحر شيخ الحنابلة، أبو الوفاء علي بن عقيل ابن محمد البغدادي، المتكلم، صاحب التصانيف، ولد سنة ٤٣١، وكان يتوقد ذكاء، وكان بحر معارف وكنز فضائل لكنه حصل له خلط في باب الصفات لجلوسه إلى بعض المعتزلة، توفي سنة ٥١٣، رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ٤٤٣ ـ ٤٥١.

«إني لا يحلّ لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطّل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح»(١).

وقال أحد الغربيين:

«كل رجل ناجح لديه نوع من الشباك يلتقط به نحاتات وقراضات الزمان، ونعني بها فضلات الأيام والأجزاء الصغيرة من الساعات مما يكنسه معظم الناس بين مهملات الحياة، وإن الرجل الذي يدخر كل الدقائق المفردة وأنصاف الساعات، والأعياد غير المنتظرة، والفسحات التي بين وقت وآخر، والفترات التي تنقضي في انتظار أشخاص يتأخرون عن مواعيد مضروبة لهم، ويستعمل كل هذه الأوقات ويستفيد منها ليأتي بنتائج باهرةٍ يدهش لها الذين لم يفطنوا لهذا السر العظيم»(٢).

والعجز كل العجز أن يضيع الثقة وقته في

---

(١) «الوقت هو الحياة»: ١٧٨.

(٢) «سبيلك إلى الشهرة والنجاح»: ٥٦.

تفاهات، أوفي أمور مفضولة يضيع بها زمانه، ثم إنه لايشعر بانقضاء الزمان وكرور الأيام وقلة الزاد إلا بعد فوات الأوان.

ثامنا: تفاهة الأهداف:

إن عِظَم الأشخاص مرتبط بعِظَم أهدافهم، فمهما عظم الهدَف فإنه دالٌّ على تفتحِ ذهن صاحبه وحبه لمعالي الأمور، وإذا نظرت إلى صاحب هدف متدن تافه فاعلم بأنه قد ضل المنهج الصحيح، والتبست عليه الأمور، وغشيته غاشية من غواشي إبليس، نسأل الله السلامة.

والناظر إلى عدد من الثقات اليوم يعجب من تفاهة أهدافهم وقلة احتفالهم بالمعالي، وهذا له أمثلة كثيرة لكني أورد مثالاً فريداً موضحاً لما ذهبت إليه، ألا وهو مسألة النظام الغذائيّ أو ما يسمى بـ «الرجيم»، وهذه مسألة قد شغلت عدداً متزايداً من الثقات، وأخذوا يخططون لها وينفذون، ويسأل بعضهم بعضاً عنها ويستشيرون، والعجب أنهم يتابعون أخبار هذا النظام الغذائي ويتسقطون ما ينشر عنه على صفحات

الجرائد والمجلات بما لا يوازي عشر قراءتهم عن أي مسألة مهمة من مسائل الدنيا والآخرة، وتجدهم في مجالسهم يتبارون في ذكر ما للفاكهة من سُعرات حرارية، وما لأنواع اللحوم من طاقة، وما لمختلف الأشربة من دسم وهكذا...

وملك عليهم هذا «الرجيم» حياتهم، وليتهم استنوا بسنة النبي ﷺ في الطعام لكان ذلك منهم عبادة لكنهم انصرفوا عنها، وصاروا يعاقبون أنفسهم بمجاهدات لم ينزل الله بها من سلطان، ويصبر أحدهم صبراً عجيباً على هذا «الرجيم» ما لايصبر عشر معشاره على فضائل ترقى به إلى عالي جنات النعيم.

والعجيب أنهم في سبيل تحقيقهم متطلبات هذا الرجيم يعرضون عن القِرى وهم ضيوف، بل إن بعضهم يعاتب صاحب المَنزل لعدم تقديمه ما يناسبهم من الاهتمامات، بل إن بعضهم - والله - لا يفطر على التمر وهو صائم بدعوى أن فيه سعرات حرارية كثيرة، وبعضهم - وهو الأنكى - يُعرض عن ماء زمزم بدعوى

أنه «طعام طُعم»[١] أي أنه يخالف ما يصبون إليه من «رجيمهم» هذا، فتجد أحدهم يُعرض عن هذا الماء المبارك ويشرب غيره، أرأيتم أعجب وأتفه من هذا !

إن النبي ﷺ كان يحب العسل والحلواء[٢]، ويأكل اللحم، ويقبل ما يقدم إليه إلا أن يعافه، وهؤلاء يتركون الطعام المبارك بدعوى الرجيم.

إني لأظن أن الشيطان قد تصرف في أمثال هؤلاء تصرفاً عجيباً، وأوقعهم في حبائلَ من كيده حيث صرفهم عن المعالي إلى التوافه من الأمور.

نعم لو أنهم أخذوا بتعاليم هذا النظام الغذائيّ بقدر وانصرفوا لما يهمهم من أمر دنياهم وأخراهم لكان لهم وجه في تصرفهم هذا، لكن أن يجعلوا اهتمامهم الأعلى في الحياة هو هذا الأمر فهذا هو

---

(١) جزء من حديث صحيح أخرجه الإمام أحمد، أوله: «إنها مباركة، وإنها طعام طُعْم»، انظر«الفتح الرباني»: ٢٣/٢٤٨.

(٢) جزء من حديث صحيح أخرجه الستة عن عائشة رضي الله عنها، انظر مثالاً: صحيح البخاري: كتاب الطلاق: باب ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾.

الخسران، نسأل الله العافية.

ولو مكثت أحدثكم عن أفكار هؤلاء وكيف يتصرفون لأتيت لكم بالعجب لكن حسبي ما قدمته دليلاً على عجز بعض الثقات الواضح عن الاشتغال بمعالي الأمور.

وإذا عقدنا مقارنة بين أهداف أولئك التافهة وهدف عظيم لثقة من ثقات المسلمين لرأينا عجباً، هذا الطبيب عبدالرحمن السميط الكويتي ـ حفظه الله تعالى ـ وضع هدفاً أعلى لحياته وهو إنقاذ مسلمي إفريقيا من التنصير، وهداية وثنييهم، وهذا هدف يعجز عنه أعداد ضخمة من الثقات، لكن الرجل وضع هذا الهدف منذ قرابة عشرين سنة وظل يعمل له بدون كلل، نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً، وقد نجح في هدفه هذا نجاحاً لا يستطيع التاريخ أن يتجاوزه، بل أزعم واثقاً أن الرجل ممن غيّر مسار تاريخ إفريقيا بالكامل، حيث ضايق الدوائر الكنسية المخربة، وأرّقها وأقض مضاجعها، وبنى من المساجد والمدارس والمستشفيات والإذاعات والآبار ماسيكتب له بحروف من نور إن شاء الله ـ تعالى ـ.

أرأيتم إذا عظم هدف الثقة كيف يبدع ويفعل ما يشبه المحال، وكما أنه إذا تدنت أهدافه أصبح على هامش الحياة لا يؤبه له ولا يُشعر أنه عاش في هذا الحياة أصلاً.

وهناك ثقات كثيرون يغيرون مسار التاريخ في الأمريكتين، وأوروبا، واستراليا، وإفريقيا حيث يعملون ليل نهار، وفي ذهنهم أهداف عظام طمحوا إليها ونفذوا كثيراً منها، وكثير من عجزة الثقات يرمقونهم ببرود بل إن بعضهم يحاربونهم ويقفون في وجه أهدافهم، ولاحول ولا قوة إلا بالله.

إذاً ينبغي على كل ثقة أن يضع نصب عينه هدفاً عظيماً يحاول بكل جهده أن يصل إليه، والله الموفق.

انظر إلى صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله تعالى ـ حيث جاهد الصليبيين جهاداً عظيماً متواصلاً، لكنّ هدفه كان أسمى من انتصارات وقتية أو إخراجهم من بلاد الشام، هذا أحد أصحابه يحكي أنه كان سائراً معه من عسقلان إلى عكّا، «وكان الزمان شتاءً عظيماً،

والبحر هائجاً هيجاناً عظيماً، وموجه كالجبال، كما قال الله ـ تعالى ـ.

وكنت حديث عهد برؤية البحر، فعظم أمر البحر عندي حتى خُيّل لي أنني لو قال لي قائل: لو جُزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا لما كنت أفعل، واستخففت رأي من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم، واستحسنت رأي من لايقبل شهادة راكب البحر، هذا كله خطر لي لعِظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه.

فبينا أنا في ذلك إذ التفت إليّ وقال:

إنه متى يسّر الله ـ تعالى ـ فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودّعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت.

فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان يخطر لي وقلت له: ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى، ولا أقوى نيّة منه في نصرة دين الله، وحكيت

له ما خطر لي، ثم قلت: ما هذه إلا نية جميلة ولكن المولى يُسيّر في البحر العساكر، وهو سور الإسلام ولا ينبغي أن يخاطر بنفسه.

فقال: أنا أستفتيك: ما أشرف الميتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله.

فقال: غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات.

قال: فانظر إلى هذه الطَويّة ما أطهرها، وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها»[١].

أرأيت ـ أخي القارىء ـ ذلك الهدفَ العظيم الذي وضعه صلاح الدين ـ رحمه الله تعالى ـ لنفسه، وكيف كان يسعى لتحقيقه، فمن وضع هدفاً لنفسه يقارب ذلك أو يماثله أتراه يعجز أو يكل دون تحقيقه؟

وإذا كانت النفوس كباراً

تعبت في مرادها الأجسام

---

(١) «مختصر الروضتين»: ٣٨٣.

تاسعا: خلف الوعد:

وهذا من الثقة قبيح؛ إذ أنه يعد بفعل كذا ولا يفعله، ويتعهد بإنجاز أمر ثم لاينجزه، والأقبح من ذلك أن يعدك بالحضور في ساعة كذا ثم إنه لايحضر ولا يعتذر، أو أنه يحضر متأخراً معتذراً بأعذار واهيات لاتقبل من أمثالهم من الثقات، وكم اقتطع الناس زماناً طويلاً من أوقاتهم الثمينة انتظاراً لأشخاص لايحترمون أوقاتهم ولا ينجزون ميعادهم، وإذا حضروا تراهم غير آبهين لما صنعوه، ولامكترثين لمافعلوه.

ومن جنس ذلك الصنيعِ عدمُ الاستمرار في العمل الصالح بعد البدء به، وعدم المواظبة على معالي الأمور بعد التعهد بإنجازها.

وما أتي هؤلاء الناس إلا من قلة فهمهم، وعدم معرفتهم بالوعيد المترتب على خلف الوعد عمداً، وعدم تصورهم للأضرار التي يحدثها تأخرهم؛ الأضرار النفسية الناتجة عن طول الانتظار والتوجّس،

والأضرار الكائنة في تضييع الزمان وإهدار الأوقات الثمينة، وقد يترتب على تأخرهم الدائم عدم الثقة بهم، وقلة الاكتراث بحضورهم أو تغيبهم، والله المستعان.

قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[١].

وقال النبي ﷺ:

«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[٢].

وقالت الحكماء:

خلف الوعد ثلث النفاق.

لاخير في وعد مبسوط وإنجاز مربوط.

---

(١) سورة الصف.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الإيمان: باب علامات المنافق.

عهد اللئيم مَطْل[١] وتعليل.

لاتقل بلسانك ما لاتعتقده من إحسانك.

الرد الجميل أحسن من الوعد الطويل.

ليس وعده إلا خديعة وسراب بقيعة[٢].

إنما هو كبرق خُلَّب[٣].

سحابة صيف أثبت من قوله.

الخَط في الماء أبقى من عهده.

قد قضينا العمر في مَطْلكم

وظننا وعدكم كان مناماً

أإذا متنـــا نـرى وعــدكـم

أم إذا كنـا تراباً وعظاماً[٤]

---

(١) أي: تأخير.

(٢) القيعة: جمع القاع، وقيل هي لغة في القاع، وهو المنخفض منَ الأرض المستوي منها.

(٣) أي كاذب لا مطر فيه.

(٤) «نصايح الشيخ»: ١/٣١-٣٢.

عاشراً: عدم ضبط الأهل:

يقصر كثير من الثقات الصالحين في ضبط أزواجهم، ويعجزون عن ذلك عجزاً بيناً، فتصبح المرأة مسيطرة، آمرة ناهية، فتنحلّ عرى القوامة، ويضيع المنزل أو يكاد، ويفقد الرجل السيطرة على المنزل والأولاد، وما ذلك إلا لعجزه عن وضع نفسه المكان الذي جعله الله تعالى له.

قال جل من قائل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1].

وكان النبي ﷺ ـ في حياته مع أزواجه ـ مفسراً لمعنى القوامة هذه ومبيناً لها، فلم يكن يتساهل في الحدود الشرعية، و التطبيقات السوية لبعض المفاهيم كالنفقة والعدل، وما عدا ذلك فقد كان هيناً ليناً ﷺ، فقد روت عائشة ـ رضي الله عنها ـ حاله في بيته فقالت:

---

(١) سورة النساء: آية ٣٤.

«كان في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة»[١].

لكنه ﷺ اعتزلهن شهراً كاملاً لأمر موجب لذلك ارتآه بأبي هو وأمي ﷺ[٢].

وقد خير نساءه ﷺ ورضي عنهن في أمر النفقة التي ارتأى ﷺ أن يضبطها بضابط النبوة، وفيه من الزهد والتقشف الشيء الكثير، قال الحافظ ابن كثير[٣] في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾

---

(١) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني: ٢٢/١٥٣. وقد حكم الأستاذ البنا على الحديث بأنه صحيح، وقال في تفسير «مهنة أهله»: أي يشاركهن فيما يجب عمله في البيت.

(٢) انظر «صحيح مسلم»: كتاب الصيام: باب أيام الصيام ثلاثون أو تسع وعشرون...

(٣) إسماعيل بن عمر بن كثير البصري: عماد الدين، الحافظ الإمام، ولد سنة سبعمائة ونشأ بدمشق واشتغل بالحديث، وله عدة مصنفات سارت في البلاد، وكان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، توفي سنة ٧٧٤، انظر «الدرر الكامنة»: ١/ ٣٩٩ـ٤٠٠.

وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[١] قال:

«هذا أمر من الله لرسوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأن يخيّر نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن ـ رضي الله عنهن وأرضاهن ـ الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة، ثم ساق الحافظ عدداً من أحاديث التخيير بسندها إلى النبي ﷺ[٢].

واليوم ـ في دنيانا ـ صور مؤسفة على عجز الثقات أن يضبطوا أزواجهم، فهذا رجل ثقة صالح لكن زوجه غير منضبطة بتعاليم الإسلام في صور متعددة، وآخر لايستطيع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بيته، وثالث لايستطيع أن يؤدي فريضة الدعوة أو يتحرك خارج

---

(١) سورة الأحزاب.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم»: ٦/ ٤٠١-٤٠٤.

منزله مالم تأذن له زوجه، تلك صور حادة لكنها موجودة في مجتمع الثقات بدرجات متفاوتة، وهي دالة ولا ريب على عجز مطلق وضعف واضح، حمانا الله تعالى.

أتيت منزل أخ صالح أدعوه إلى رحلة مباركة إلى المدينة النبوية الشريفة، فقال: لاأستطيع، وتعلل بعلل وأعذار، فعذرته، ثم إني قلت له: يا فلان: إنا سنصحب النساء والأولاد لترق قلوبهم، فتهلل وجهه ـ والله ـ وبدرني قائلاً: لِمَ لَمْ تقل ذلك من أول حديثك، إني ذاهب معكم.

أرأيت إلى تأثير أهله فيه وكيف يُحجم عن الخير بسببهم؟ عافانا الله تعالى.

قال الأستاذ فتحي يكن:

«تلعب المرأة في حياة الداعية ـ بل وفي حياة الناس أجمعين ـ دوراً بالغ الأثر؛ فهي إما أن تكون مصدر نعمة أو مبعث نقمة.

وفي حياة الدعوة صور عديدة لكلا الحالتين، فمن الدعاة من حسن بعد الزواج إسلامهم، واستقام خطوهم، وكثر إنتاجهم.

ومنهم من تردّت بعد الزواج حياتهم، فساء إسلامهم، وفسدت أخلاقهم، ثم انطوى ذكرهم عن مسرح الدعوة ووجودها»[١].

وقال أيضاً:

«وحذر الإسلام الأزواج من التمادي في مجاراة المرأة فيما تهوى حفاظاً على شخصية الرجل وقوامته من الانهيار والانحسار، وفي ذلك الخراب كل الخراب للبيت الزوجي ولمن فيه... فشخصية الرجل تلعب دوراً كبيراً في الحياة الزوجية، ومالم يكن الرجل في حياة زوجته كل شيء، تجد فيه المثل الأعلى والقدوة الحسنة، وتحس منه الحزم والحنان فإن عقد الزوجية سيصاب حتماً بالتفكك... وخلاصة القول أن الزواج من أخطر المنعطفات التي تمر في حياة الدعاة، وخسارة كبرى أن يسقط هؤلاء عند التجربة الأولى»[٢].

***

---

(١) «مشكلات الدعوة والداعية»: ٤٩.

(٢) المصدر السابق: ٥٥-٥٦.

أسباب العجز

لعجز الثقات أسباب كثيرة، منها ما هو ذاتي في الثقة نفسه، ومنها ما هو خارجيّ عنه.

فأما الخارجي فينقسم إلى قسمين:

الأول: أسباب لايملك الإنسان إزاءها شيئاً، فهذه لاحيلة له فيها، والله ـ تعالى ـ لايكلف نفساً إلا وسعها، وقد رفع الحرج عن عبده، فيصبر الإنسان حيال المصاعب كما صبر الصحابة في مكة رضي الله ـ تعالى ـ عنهم حيال الفقر والظلم والإيذاء.

الآخر: أسباب يملك الإنسان أن يتعامل معها ويتجاوز عجزه إزاءها مثل أن تكون تحته زوجة متسلطة، أو خارجة عن حدود الله ـ تعالى ـ فيضبطها أو يفارقها، أو أن يميل إلى شهوة محرمة يملك قطع

أسبابها عنه بالصبر والتقوى، أو أحاطت به أسباب من الرفاهية والدعة يملك أن يخشوشن إزاءها، وهكذا.

وأما الأسباب الذاتية المولدة للعجز فهي التي قد تتعب صاحبها أو تستعصي عليه استعصاء كبيراً؛ إذ لابد له من تجاوزها حتى يخرج عن إسار عجزه، وتجاوزها يكمن في إصلاح طويل وتهذيب مستمر لأمراض ورعونات ليس من السهل أبداً إصلاحها، لكن الاعتصام بالله ـ تعالى ـ الفزع إليه ودعاؤه مع الأخذ بأسباب العلاج كل ذلك كفيل بالتخفيف من آثار تلك الأمراض والرعونات إلى حد كبير.

فمن تلك الأسباب[1]:

أ ـ التواضع الكاذب:

وأعني به ذلك الانكسارَ الدائم في شخصية المرء، فتجده يعتذر دائماً بأنه ضعيف لايستطيع تحمل

---

(١) إنما عرضت للأسباب الذاتية وتوسعت في ذكرها لأن من طرقها وعالجها قليل، بخلاف الأسباب الخارجية فقد كثر الحديث عنها.

المسؤولية، أو هو أقل مما يؤمل منه، أو أن الآخرين خُدعوا به حيث ظنوا فيه خيراً[١]، أوَ لم يعلم أن قليله كثير عند الآخرين، وما يظنه من نفسه إنما هو بخلاف ما وهبه الله من قدرات مكنونة في نفسه ينتظرها ويرجو خيرها سائر المسلمين ؟

والعجيب أن مثل هذا المنكفىء المنكسر يرى من هو أقل منه علماً وفقهاً يتصدر ويُسمع قوله وهو ما زال متردداً متعللاً متوانياً.

والخطر في هذا الخلق الذميم أن صاحبه قد يعتاد استعظام الأمور حتى إن كانت يسيرة، فينتهي به الأمر إلى القعود والعجز الكلي، والعياذ بالله.

ومن كانت هذه حاله فإنه لايرجى له أن يتجاوز عثار عجزه هذا إلا أن يعزم عزماً أكيداً على تجاوز هذا الخلق الذميم الذي ينافي الإقدام والجرأة والاستجابة

---

(١) كنت قد أشرت في كتاب «التنازع والتوازن في حياة المسلم» مسألة التصدر قبل أوان التأهل وناقشتها، فيجمع بينها وبين ما هنا.

للمعالي وغير ذلك من الصفات المطلوبة في المرء المسلم.

قال الشاعر:

قد رشحوك لأمر لوفطنت له

فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَل

ب ـ التحسس ورهف المشاعر:

إن الشخصية اللطيفة الحس، المستقيمة في تصوراتها وعواطفها لهي الشخصية المطلوبة الجيدة حقاً، أما إن طغت عليها عواطفها، وأصبحت في غاية التحسس والرقة فإن في ذلك فسادَها وذهاب قوتها وتميزها، ولايعود يستطاع التبسط في الحديث مع من شأنه كذلك؛ إذ هو يحمل الكلام على محاملَ كثيرة، ويؤل تأويلات لايحتملها الكلام بل لم تخطر على بال المتكلم أصلاً، ويصير ذلك الشخص متأثراً بالأحداث حوله إلى الغاية التي تنفر أقرب الناس إليه من حاله وصفته.

وهذا كله مدخل كبير إلى عجز ذلك المتحسس عجزاً كبيراً؛ لأنه لايستطيع الخلطة مع الناس على وجه مرضي، ولا الناس يرغبون في لقائه والمكث معه وهو كذلك، فينتهي به الأمر إلى العزلة والانقطاع، ومن ثم العجز التام عن المشاركة في الإصلاح والدعوة إليه.

ولقد عرفت رجالاً كان هذا شأنهم الذي سطرته آنفاً، وهم يعيشون الآن على هامش الحياة بسبب غلبة عواطفهم عليهم وعدم استطاعتهم التحكم فيها والاستفادة منها ولوقوفهم الدائم عند صغائر الأمور التي لا يُلقي أكثر الناس لها بالاً.

وعلاج أولئك عسير عسير، ومالم يوفقهم الله ـ تعالى ـ فإنه لايُرجى لهم البرءُ من مرضهم هذا؛ حيث إنه قد نشأ لديهم منذ الصغر ـ غالباً ـ واعتادوا عليه وطُبعوا به فلا انفكاك لهم عنه إلا أن يشاء الله ـ تعالى ـ أمراً آخر، وقد يحتاج صاحب هذا الخلق أن يتردد على طبيب بارع في معالجة علل النفوس حتى يتخلص من بعض أعراض مرضه هذا، والله الموفق.

جـ ـ الكسل:

وهو صفة مستحكمة في كثير من الخلق، تدعوهم إلى القعود عن المعالي والفضائل، والرضى بالدون من كل شيء.

والكسل أكثر منشئه من الترف والدَّعة، والتبسط إلى الدنيا، والعَبّ من شهواتها وملاذّها، وعدم الالتفات إلى ما يخالف ذلك أو يُنغص عليه.

والكسل مؤد إلى العجز ولابد،حيث إنه يمنع المرء من الخروج من منزله وحيِّه لغرض الإصلاح والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل يمنع المرء من الحركة إلى المساجد وطلب العلم، بل قد يمنعه من الحركة في بيته لتربية أولاده ومراقبتهم، ومن كان حاله كذلك فهو العاجز عجزاً كلياً، نسأل الله السلامة والعافية.

«والكسل آفة النجاح،وهو وباء فتاك يفتك بكل من يصيبه فيجعله عاجزاً عن تحمل مسؤولياته كإنسان وفاشلاً في تكوين مستقبله ككيان مستقل، ومنهزماً أمام

تحديات الحياة... ولقد اعتبر الإسلام الكسل صفة ذميمة، فلقد ذم الله عز وجل الكسالى في كتابه المجيد، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾[١]، وقد كان الرسول ﷺ يتعوذ من الكسل... فعن أنس رضي الله عنه كان النبي ﷺ يقول:

«اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل»[٢].

وقال علي رضي الله تعالى عنه:

التواني مفتاح البؤس، وبالعجز والكسل تولدت الفاقة ونتجت الهلكة، ومن لم يطلب لم يجد وأفضى إلى الفساد.

وقال بعض الحكماء:

الحركة بركة، والتواني هلكة، والكسل شؤم[٣].

---

(١) سورة التوبة: آية ٥٤.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الدعوات: باب التعوذ من غلبة الرجال.

(٣) «الشخصية الناجحة»: ٦٠ـ٦٢، وقد نقل المصنف قول علي =

وإياك «وإيثارَ الخفض والدَعَة، والميل إلى الراحة والسعة؛ فإن خواتم هذه الخصال مذمومة، وعقباها كريهة وخيمة. . . ودع الضجر والكسل وحب العاجلة فإنها من أخلاق البهائم. . .»[1].

وقد كان شيخ الإسلام زكريا الأنصاري[2] ـ رحمه الله تعالى ـ «يصلي النوافل من قيام مع كبر سنه وبلوغه مائة سنة أو أكثر، وهو يميل يميناً وشمالاً لايتمالك أن يقف بغير ميل للكِبَر والمرض، فقيل له في ذلك، فقال: ياولدي، النَفس من شأنها الكسل، وأخاف أن تغلبني وأختم عمري بذلك»[3].

وينبغي أن يعالج الكسل لئلا يؤدي إلى الفتور

= رضي الله عنه من «المستطرف»: ٢/ ١٢٧.

(١) «البصائر والذخائر»: ٢/ ٧ ـ ٨.

(٢) زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري، أحد علماء القرن العاشر، وممن رزق حظاً عظيماً في التصنيف وكثرة الطلبة، تولى القضاء في مصر، ومات فيها سنة ٩٢٦ بعد أن عمر زيادة عن مائة سنة. انظر أخباره في «الكواكب السائرة»: ١/ ١٩٦ ـ ٢٠٧.

(٣) المصدر السابق: ١/ ٢٠٢.

«وهو دواء يصيب العاملين يؤدي في أسوأ أحواله إلى الانقطاع بعد الاستمرار، وفي أحسن أحواله يظهر السكون والكسل والتراخي والتباطؤ بعد الحركة، وورود الفتور أمر عارض يجب ألاّ يُسلم له. . . فالداعية إن كانت له فترة فلتكن استراحة مقاتل يعود بعدها إلى العطاء والجهاد، قال النبي ﷺ في حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما:

«لكل عمل شِرّة[1]، ولكل شِرّة فَتْرة[2]، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد أفلح، ومَن كانت إلى غير ذلك فقد هلك»[3].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

---

(١) النشاط والرغبة، وشرة الشباب أوله ونشاطه، وانظر «الترغيب والترهيب»: ١/ ٨٧.

(٢) الفترة: الانقطاع.

(٣) قال الإمام المنذري: رواه ابن أبي عاصم وابن حبان في صحيحه، انظر «الترغيب والترهيب»: ١/ ٨٧، وقد صحح الحديث الأستاذ أحمد شاكر رحمه الله تعالى، كما في «العوائق»: ٩.

«فتخلل الفترات للسالكين أمر لازم لابد منه، فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد ولم تخرجه من فرض ولم تدخله في محرم رُجي له أن يعود خيراً مما كان مع أن العبادة المحببة إلى الله سبحانه هي مادام العبد عليها»[١].

د ـ السآمة والملل:

إن الله تبارك وتعالى وضع سنناً تسير هذا الكون وتحكمه، وهي سنن حكيمة لها حد تنتهي إليه بعلم الله، تبارك وتعالى، فمن هذه السنن أن الفساد الناجم عن طول معاشرة الناس للمنكرات واستمرائهم لها لايزول إلا بإصلاح تدريجي قد يطول فيستغرق أجيالاً، أو يقصر ليتحقق في الجيل نفسه لكن بعد سنوات طويلة، والناظر في التاريخ الإسلامي بل تاريخ النبوات والمصلحين منذ آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يرى ذلك واضحاً جليّاً لايحتاج إلى برهان.

---

(١) «الفتور»: ١٥ـ ١٦. ونسب المصنف كلام ابن القيم إلى «مدارج السالكين»: ٣/١٢٦.

والمتصدون لهذا الإصلاح لابد أن يوقنوا بذلك، ويوطنوا أنفسهم على بذل الأوقات الغالية على مدى أزمان طويلة متتالية ـ قد تبلغ ثلاثين أو أربعين سنة أو أكثر ـ حتى يستقيم لهم طائفة معتبرة من الناس على منهج الله تبارك وتعالى.

فإن جاء أناس تعجلوا وظنوا أنهم قد يختصرون زمان الإصلاح إلى سنوات قليلة معدودة فهؤلاء لم يفقهوا تلك السُنة ولم يفهموها حقّ الفهم، وعملهم هذا مبتدع، حيث لاسابق لهم في ظنهم هذا، ولا يستطيعون الإتيان بدليل على ما ذهبوا إليه.

ثم إن وضح لتلك الطائفة خطأ ما ذهبوا إليه وتعجلوه ارتد أكثرهم على أعقابهم يائسين من الإصلاح، راغبين عنه، زاهدين فيه، قد علتهم السآمة والملل، واعتراهم الكلال والضعف، فيصبحون عاجزين مثبطين، مُحبَطين مُحبِطين.

وهذا خلاف منهج الأنبياء العظام الذين بذلوا جهوداً كبيرة لمدة طويلة بلا يأس ولا ملل، وأوضح

مثال على هذا هو نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام، فقد واصل «جهوده النبيلة الخالصة الكريمة لهداية قومه بلا مصلحة له ولا منفعة، ويحتمل في سبيل هذه الغاية ما يحتمل من إعراض واستكبار واستهزاء ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعدد المستجيبين له لا يكاد يزيد، ودرجة الإعراض والإصرار على الضلال ترتفع وتزداد... ولا يمل، ولا يفتر، ولا ييأس أمام الإعراض والإصرار... حاول أن يسلك إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم بشتى الأساليب ومتنوع الوسائل في دأب طويل، وفي صبر جميل، وفي جهد نبيل ألف سنة إلا خمسين عاماً...»[١].

وقد تكون السآمة ـ المؤدية للعجز ـ ناشئة عن نفس ملولة سَئمة متقلبة، لاتستقر على أمر، ولا ترضى بالثبات على حال واحدة مُرْضية زماناً طويلاً، أو تكون ناشئة عن مزاجية في العمل فما رغب فيه عمله وما رغب عنه تركه، أو تكون ناشئة عن إحباط؛ فقد يعمل

---

(١) «في ظلال القرآن»: ٦/ ٣٧١٢ ـ ٣٧١٥ بتصرف.

الشخص طلباً لمنصب أو تحقيقاً لغرض، فإن لم يدركه أصابته السآمة وترك العمل.

هـ- الانقباض وضيق العَطَن[1]:

نفوس المصلحين لابد أن تكون رحبة، بعيدة عن العسر، قريبة من الناس، تُؤْثر الخلطة المفيدة، وتشعر الناس جميعاً أنهم قريبون منها على الدوام، أما إن كان الثقات عسرين، منقبضين، ضيقي العَطَن، راغبين عن الناس، مؤثرين العزلة غير المفيدة ولا المنضبطة بضوابط الشرع المطهر فإنهم سيكونون عاجزين كل العجز عن إصلاح المجتمع والتأثير الإيجابيّ فيه، ولن يُحتاج إلى أحدهم إلا اضطراراً وبقدر، وعدا عن ذلك فإنهم سيكونون منعزلين ما لم تشتد حاجة الناس إليهم، كحاجة السابقين إلى الأعمش[2] رحمه الله تعالى.

---

(١) ضيق العطن: قلة الصبر، وقلة الحيلة عند الشدائد.

(٢) سليمان بن مهران، أحد الأئمة الحفاظ، وكان من العسرين في الرواية، الذين يضيقون بالناس ويؤثرون اعتزالهم، وله في ذلك حكايات عجيبة. انظر سيرته في «سير أعلام النبلاء»: ٦/٢٢٦ وما بعدها.

قال النبي ﷺ:

«المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فمن لا يألف ولا يؤلف»[١].

وهذا الانقباض عن الناس يحيل المرء إلى أن يكون عاجزاً لايستطيع إصلاحاً ولا يقدر عليه، بل لايرغب فيه.

ولله در الشافعي حيث يقول لتلميذه:

«الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط»[٢].

و ـ اليأس:

اليأس نقيض الحياة، وهو الموت المبكر؛ وذلك لأن اليائس قد أظلمت الدنيا في وجهه قبل ظلمة القبور،

---

(١) قال الحافظ الهيثمي رحمه الله تعالى: «رواه أحمد والطبراني وإسناده جيد». انظر «مجمع الزوائد»: ١٠/ ٢٧٧.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٧٤١.

ومات الأمل في نفسه وذهنه وقلبه قبل موت أعضائه، فهو في الدنيا حسّاً لكنه معدود في عالم الأموات الذي يشمل أصنافاً كثيرة منها من خرجت روحه وفارق الدنيا، ومنها اليائس، ومنها الكافر، ومنها الضال عن منهج الله؛ إذ حياة أولئك أشبه بموتهم، والعياذ بالله تعالى.

واليائس عاجز عاجز، لايستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً؛ لا لأنه مسجون أو مقهور بل لأنه قد سجن نفسه بتصوره أن لافائدة من الإصلاح ولا رجاء في الخلق، ولا خير عند الناس.

والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لم ييأسوا، بل دعوا إلى الله ـ تعالى ـ بعزم وجد سنوات طويلة وبعضهم دعا قروناً كنوح عليه السلام، وقد كانت حصيلة الدعوة ضئيلة في بعض الأحيان كما أخبر النبي ﷺ: «يأتي النبي ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، والنبي وليس معه أحد»[١].

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الطب: باب من كوى أوكوى غيره.

وقد أخبر الله تعالى عن نوح بعد أن دعا ألف سنة تقريباً أنه ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[١].

و«من المؤثرات النفسية التي يواجهها الدعاة ويستشعرون بها، ويجدون الكثير ممن يُحسبون على الإسلام يتشدقون بها ويرفعون لواءها المؤثر التيئيسيّ الانعزاليّ الذي يقعدهم عن مسؤولية الدعوة، ويثبطهم عن فرضية الجهاد، ويدفعهم إلى عزلة المجتمع والركون إلى الاسترخاء والانطوائية. . . وهذه الظاهرة من التيئيس والتثبيط إذا استفحلت في أمة وترسخت في نفسية الدعاة فإنها ـ في الحقيقة ـ القاصمة التي تقصم مسيرة العمل الإسلامي، والحالقة التي تحلق التفاؤل بالنصر، فلم يبق لإقامة العزة الإسلامية في النفوس رجاء، ولم يعد لاستعادة الأمجاد التاريخية أمل»[٢].

ز ـ الخوف:

وهو داء قتّال، إن أصيب به الثقة ضعف ضعفاً

---

(١) سورة هود: آية ٤٠.

(٢) «عقبات في طريق الدعاة»: ٢٢٢.

عظيماً، وخارت قواه، ووهت عزيمته، وقد ينزع عنه لقب الثقة إن غلبه الخوف؛ إذ من شروط ثقات المسلمين أن يكونوا متوكلين على الله ـ تبارك وتعالى ـ في شؤونهم كلها، والخائف ليس متوكلاً؛ إذ هو يخاف من مجهول المستقبل على نفسه، أو ماله أو عياله، أو وظيفته، فيصبح في هاجس دائم وخوف مستمر قد يملك عليه أرجاء نفسه فينسحب من جنة الدنيا إلى صحرائها، ومن نعيم التوكل إلى جحيم القلق، فينتهي به الحال إلى عجز مطلق مستمر، وذل دائم ـ والعياذ بالله ـ لا يزول إلا بزواله ولا ينتهي إلا بنهايته.

إن الناظر إلى ثقات المسلمين قديماً وحديثاً ممن نصبوا أنفسهم للإصلاح والتغيير لايكاد يجد فيهم خائفاً خوفاً مؤدياً به إلى الانقطاع والعجز، إنما قد تعتري أحدَهم وساوس ينفيها بقوة توكله وعظيم إيمانه، وكان الله ـ تعالى ـ معه: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[1].

---

(١) سورة طه.

وهذا الخوف يعظم حال الفتن والمصائب، لكنها «سنة الله القديمة في تمحيص المؤمنين وإعدادهم ليدخلوا الجنة وليكونوا لها أهلاً: أن يدافع أصحاب العقيدة عن عقيدتهم، وأن يلقوا في سبيلها العَنَت والألم والشدة والضر، وأن يتراوحوا بين النصر والهزيمة، حتى إذا ثبتوا على عقيدتهم لم تزعزعهم شدة ولم ترهبهم قوة، ولم يهنوا تحت مطارق المحنة والفتنة... استحقوا الجنة؛ لأن أرواحهم قد تحررت من الخوف، وتحررت من الذل، وتحررت من الحرص على الحياة أو على الدَّعَة والرخاء، فهي عندئذ أقرب ما تكون إلى عالم الجنة، وأرفع ما تكون عن عالم الطين: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾(١)»(٢).

---

(١) سورة البقرة: آية ٢١٤.

(٢) «طريق الدعوة»: ٣٥١ ـ ٣٥٢.

جـ - الغموض:

هو هالة تحيط بالمرء فلا يعود يُعرف ماذا يريد، ولا ما هي أهدافه، ولا يستطيع المرء معرفة أو تحديد طريقة حياة ذلك الشخص أو كيف يفكر، وقد ينشأ هذا الغموض من ظرف نفسي خالط ذلك الثقة فغمض حاله وجُهل فصار يؤثر العزلة والانقباض مثلاً، أو قد ينشأ هذا الغموض من سبب خارجي عنه كهيئة أو خلْقة أو لباسٍ غريب عن مجتمعه، أو كل ذلك جميعاً.

والغموض الملازم للشخص مؤد به إلى العجز ولا ريب، إذ سيتجنبه الناس فلا يخالطونه، ويخافونه ويحذرونه، ولا يوادّونه، فيجب على من ابتلي بهاته الصفة أن يسارع إلى التخلص منها قدر المستطاع حتى يعود مشاركاً للناس في حياتهم على الوجه الذي يكفل دعوتهم وإصلاحهم.

ط - التردد:

وهو من الأسباب الموصلة للعجز؛ وذلك لأن المتردد قلّما يعزم على أمر، وإذا عزم على إبرام أمر

فإنه قلّما يمضيه، فيظلّ يراوح مكانه، وتأتيه الفرصة تلو الفرصة وهو عاجز عن اقتناصها، بل هو مشغول عن الجديدة بالتحسر على تردده في أمر القديمة، وهكذا يظل عمرَه عاجزاً عن الوصول إلى معالي الأمور.

ولعل التردد ناشىء عن ضعف التوكل على الله ـ تبارك وتعالى ـ والغفلة عن صلاة الاستخارة، وعدم استشارة الموثوق بعقلهم ودينهم، والله أعلم.

تلك الأسباب ـ أسباب العجز التسعة الآنفة الذكر ـ عوامل خطيرة فتاكة قاتلة لشخصية المرء، ومدمرة لجهده ومطيحة لآماله، ومالم يتداركه الله ـ تعالى ـ برحمه منه وفضل فإنه يظل قابعاً في أسره إلى نهاية حياته، فعلى المرء المصاب بها أو بشيء منها أن يسارع إلى علاجها سرعته إلى علاج الأمراض العضوية الحالّة ببدنه، عسى أن يمنّ الله ـ تعالى ـ عليه بالشفاء منها والتخلص من آثارها حتى يكون لبنة مفيدة في بناء أمته، والله الموفق.

***

علاج العجز

ينبغي أن يُعلم أن العجز مرض، بل هو من أشد الأمراض فتكاً في الإنسان، وعلاجه إنما يكون بسؤال الله ـ تعالى ـ ودعائه بانكسار وخضوع وتذلل عسى أن يكشف الله تعالى هذا المرض عن عبده الضعيف هذا، ثم إنه ينبغي للعاجز أن يتخذ خطوات عملية بحسَب عجزه، فمن الناس من يعاني عجزاً في الجانب الإيماني، ومنهم من يعاني عجزاً في الجانب الثقافي، ومنهم من يكابد عجزاً فكرياً، ومن الناس من يجمع بين ذلك كله.

وهاك بعض الأمور المساعدة على تخطي العجز بعامة، ثم أخص بعض أنواع العجز بعلاج محدد لكل منها.

ولقد حرصت على أن يكون ما أورده عملياً قابلاً للتطبيق؛ إذ الناس قد ملوا الطرح النظري والمواعظ المجردة، والله الموفق:

أولًا: القراءة المستمرة في كتب التراجم:

وهي التي تُعنى بسير حياة الأشخاص الأعلام المؤثرين في مجتمعاتهم تأثيراً تجاوز حدود الزمان والمكان، وتلك القراءة ترْياق مجرب في مسألة العجز هاته؛ إذ أن كثيراً من النَاس تتغير أحوالهم ويتخطون عجزهم بالاطلاع على سير العظماء والأكابر، خاصة سيرَ السلف الصالح الأوائل الذين ضربوا أعظم الأمثلة في التضحية والعبادة والزهد والجهاد والإنفاق وغيرها، وكانوا بحق شامة الناس ومقدمي الأمم، والاطلاع على هاته السِّيَر يورث المرء حماساً عظيماً محاولة منه للَّحاق بركب أولئك الأكابر الأعاظم:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم

إن التشبه بالكرام فلاح

واسمع إلى حوادث ثلاثٍ تنبئك عما أعني وأريد:

قال ابن القاسم [١] رحمه الله تعالى:

«كنت آتي مالكاً غلساً[٢]، فأسأله عن مسألتين، ثلاثة، أربعة، وكنت أجد منه انشراح الصدر، فكنت آتي كل سحر، فتوسدت مرة في عتبته فغلبتني عيني فنمت، وخرج مالك إلى المسجد فلم أشعر به، فركضتني سوداء له[٣] برجلها وقالت لي: إن مولاك[٤] لايغفل كما تغفل أنت، اليوم له تسع وأربعون سنة ما صلى الصبح إلا بوضوء العَتَمة[٥]»[٦].

وهذا خبر عظيم، أي أن مالكاً ـ رحمه الله تعالى ـ

---

(١) أبو عبدالله عبدالرحمن بن القاسم بن خالد، مولى زيد بن الحارث، أصله من فلسطين وسكن مصر، أثنى عليه الفضلاء ثناء عظيماً، و كان من كبار المصريين وفقهائهم، زاهداً، عابداً، توفي بمصر سنة ١٩١ رحمه الله تعالى، انظر ترجمته مفصلة في «ترتيب المدارك»: ٣/ ٢٤٤ ـ ٢٦١.

(٢) أي قبل الفجر.

(٣) أي جاريته.

(٤) ظنته الجارية أنه عبد لمالك من كثرة ترداده عليه، وبسبب لونه الداكن.

(٥) أي العشاء.

(٦) «ترتيب المدارك»: ٣/ ٢٥٠.

ما انتقض وضؤوه قط طيلة نصف قرن من العشاء إلى الفجر، وهذا يعم ليالي الشتاء الطويلة، ومعنى هذا أنه راض نفسه على قلة الطعام والشراب طيلة اليوم حتى يتمكن من المحافظة على وضوئه، فلّله دَرُّه.

وقد روي قريب من هذا عن كثير من السلف ـ رضي الله عنهم ـ حتى لايسارَع إلى إنكار مثل هذا الخبر.

وقال أحد السلف:

«قمت ليلة سحراً [١] لآخذ النَّوبة [٢] على ابن الأخرم[٣]، فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئاً، ولم تدركني النوبة إلى العصر»[٤].

وكم سيقرأ هذا الذي لم تدركه النوبة إلى العصر،

---

(١) قبل الفجر.

(٢) أي ليقرأ القرآن، وكانوا يصطفّون عند المشايخ ويقرأ الأول قدوماً فالأول.

(٣) مقرىء دمشق العلامة أبو الحسن محمد بن النضر بن مر الرَّبَعي الدمشقي، توفي سنة ٣٤١، وقد عاش ٨١ سنة، انظر أخباره في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ٥٦٤ ـ ٥٦٦.

(٤) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ١١٤٥.

إنه سيقرأ ربعاً على الأكثر ـ أي صفحتين ونيفاً كما جرت عادة مشايخ القرآن ـ فانظروا إلى صبره العظيم ليقرأ صفحتين من القرآن، من قبل الفجر إلى العصر، والأعجب من ذلك أنه طرق بيت الشيخ قبل الفجر فوجد ثلاثين قارئاً قد سبقوه، فمتى جاء هؤلاء! وكم يصبر الشيخ على إقرائهم! لله درُّهم ما أعظمهم.

وقال الإمام عيسى بن موسى الهاشمي رحمه الله تعالى:

«مكثت ثلاثين سنة أشتهي أن أشارك العامة في أكل هريس السوق فلا أقدر على ذلك لأجل البكور إلى سماع الحديث»[1].

فهل سمعتم برجل يدفع شهوة الطعام عن نفسه ثلاثين سنة، إنّا ـ اليوم ـ لو أخرناها ثلاثين يوماً لظننا أنا قد صنعنا شيئاً عظيماً، فياحسرةً علينا وعلى تقصيرنا.

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة»: ١/ ٢٩٨.

بقراءة هذه الحوادث الآنفة الذكر وأمثالها يحيى قلب الإنسان، ويستصغر نفسه، ويذهب لينفي العجز عنه وينفض غبار التواني الذي تراكم سنين طوالاً.

يقول الإمام ابن الجوزي [١] رحمه الله تعالى:

«أعوذ بالله من سِيَر هؤلاء الذين نعاشرهم، لانرى فيهم ذا همة عالية فيَقتدي بها المبتدي، ولا صاحب ورع فيستفيد منه المتزهد [٢]؛ فالله الله، وعليكم بملاحظة سِيَر القوم ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم، فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم...

ولو قلت إني قد طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر... فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم

---

(١) هو الشيخ الإمام العلامة الحافظ المفسر أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد، ينتهي نسبه إلى القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولد سنة ٥١٠ ببغداد، وسمع من مشايخ كثيرين، كان رأساً في التذكير والوعظ بلا مدافعة، صنف مصنفات كثيرة في بعضها أوهام وأخطاء بسبب عدم التحرير والمراجعة، له حكم وأقوال كثيرة، توفي ببغداد سنة ٥٩٧، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٣٦٥ ـ ٣٨٤.

(٢) يقول هذا عن زمانه فكيف لو رأى زماننا ؟!

وقـدر هممهـم، وحفظهـم، وعبـاداتهـم، وغـرائـب علومهم ما لايعرفه من لم يطالع، فصرت أستزري ما الناس فيه، وأحتقر همم الطلاب، ولله الحمد»[١].

وقد يقول القائل: هل من أمثلة معاصرة قريبة منا تخطت عوائق مقاربة لعوائقنا وارتفعت عن أحوال مجتمعـات شبيهـة بمجتمعـاتنـا، والجـواب هـو أن الله ـ تبارك وتعالى ـ نصب في كل عصر ومصر قدوات يرحم بها الناس ويشد أزرهم بها، لكني أوردت قدوات من السلف لعظم أحوالهم وقوة إيمانهم وصبرهم وتحملهم.

وفي القرن الرابع عشر قدوات نصبوا أنفسهم لخدمة الإسلام ونصرة الدين، وضربوا أعظم الأمثلة في التضحية والفداء والهمة والعمل الصالح يحسن بالدعاة الثقات الرجوع إلى سيرتهم حتى يعرفوا كيف ارتفع أولئك على أهل عصرهم، وكيف غيروا مجرى التاريخ[٢].

---

(١) «قيمة الزمن عند العلماء»: ٣١.

(٢) انظر كتاب «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين» =

ثانياً: الزيارة لأهل الصلاح أولي الهمم العالية:

إذ الإنسان إن رأى قرْناً له يفوقه في عبادته أو زهده أو جهاده أو ثقافته فإنه يتأَثر به غالباً، وهذه طبيعة النفس الإنسانية، فليس أحسن من زيارة أمثال أولئك، إذ يورثونك زهدهم وعبادتهم وجهادهم، لذلك كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ خير جيل أخرج للناس قاطبة؛ وذلك لأنهم صاحبوا خير رسول أرسل للبشر ﷺ.

قال الإمام الشاطبيّ[(١)]:

«التأسي بالأفعال ـ بالنسبة لمن يُعظم في الناس ـ سر مبثوث في طباع البشر، لايقدرون على الانفكاك

= للدكتور محمد رجب البيومي، وكتاب «الموسوعة الحركية» للأستاذ فتحي يكن، واقرأ كذلك مذكرات العظماء كالصواف والبنّا والطنطاوي وغيرهم من المجاهدين، واقرأ كتب الجهاد المعاصر في أفغانستان ـ قبل الفتنة ـ والشيشان، والبوسنة، واقرأ كذلك آمال المصلحين وأعمالهم في كتبهم ورسائلهم.

(١) هو الإمام الكبير إبراهيم بن موسى بن محمد اللَّخميّ الغرناطي الشهير بالشاطبي، كان من أئمة المالكية، وله عدة مصنفات، توفي سنة ٧٩٠، رحمه الله ـ تعالى ـ. انظر «الأعلام»: ١/ ٧٥.

عنه بوجه ولا بحال، ولا سيما عند الاعتياد والتكرار»[١].

قال أحد السلف:

«كنت إذا وجدت من قلبي قسوة غدوت فنظرت إلى وجه محمد بن واسع[٢]، كان كأنه ثكلى[٣]»[٤].

وقال ابن المبارك:

«كنت إذا نظرت إلى الفُضَيل[٥] جدد لي الحزن ومقتُّ نفسي، ثم بكى»[٦].

وهؤلاء المذكورون من كبار السلف وأعاظمهم

---

(١) «مقومات الداعية الناجح»: ٢٧، وقد نقله عن «الموافقات»: ٤/ ٢٤٨.

(٢) الإمام الرباني القدوة الزاهد، أبو بكر الأزدي، أحد أعلام التابعين، توفي سنة ١٢٣ رحمه الله تعالى، انظر أخباره في «سير أعلام النبلاء»: ٦/ ١١٩ ـ ١٢٣.

(٣) الثكلى من فقدت ولدها.

(٤) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٢٦.

(٥) الفضيل بن عياض بن مسعود، الإمام القدوة الثبت، شيخ الإسلام، أبو علي التميميّ اليربوعي الخراسانيّ، توفي سنة ١٨٦. انظر أخباره في «سير أعلام النبلاء»: ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢.

(٦) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٦٦.

وزهادهم فلا غَرْوَ أن تقع رؤيتهم وزيارتهم موقعاً في القلب لامزيد عليه، ولكنا اليوم لانعرف ـ والله ـ من نزور من أمثال هؤلاء أو من يقاربهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولكن المرء يسدد ويقارب ويزور من يظن أنه تنفعه رؤيته، ويلين قلبه لما يرى من حاله، والله الموفق.

ثالثاً: فهم مهمة الإنسان في الحياة الدنيا:

الله ـ تبارك وتعالى ـ خلق الإنسان وأبرزه إلى الوجود لحكمة عظيمة بيّنها الله ـ تعالى ـ بقوله:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

فمهمة الإنسان ـ إذاً ـ تعبيد نفسه وغيره لله تبارك وتعالى، فإذا كانت هذه مهمته ثم تخلف عن السعي إلى تحقيقها وجعلها واقعاً في دنيا الناس فقد فرّط تفريطاً عظيماً وأساء إساءة كبيرة.

قال الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير هذه الآية:

---

(١) سورة الذاريات: آية ٥٦.

«إن هذا النصَ الصغير ليحتوي حقيقة ضخمة هائلة، من أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيقانها، سواء كانت حياة فرد أم جماعة، أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وأعصارها.

وإنه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعاني والمرامي، تندرج كلها تحت هذه الحقيقة الضخمة، التي تعد حجر الأساس الذي تقوم عليه الحياة.

وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس تتمثل في وظيفة مَن قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده، ومن قصر فيهًا أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده، وأصبح بلا وظيفة، وباتت حياته فارغة من القصد، خاوية من معناها الأصيل، الذي تستمد منه قيمتها الأولى، وقد انفلت من الناموس الذي خرج به إلى الوجود، وانتهى إلى الضياع المطلق، الذي يصيب كل كائن ينفلت من ناموس الوجود، الذي يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء.

هذه الوظيفة المعينة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود، هي العبادة لله، أو هي العبودية لله، أن يكون هناك عبد ورب: عبد يَعبد، ورب يُعبد، وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار.

ومن ثم يبرز الجانب الآخر لتلك الحقيقة الضخمة، ويتبين أن مدلول العبادة لابد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر، فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر، والله لايكلفهم هذا، وهو يكلفهم ألواناً أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم، وقد لانعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن؛ ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان.

نعرفها من القرآن من قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[1]، فهي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني، وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي في عمارة

---

(١) سورة البقرة: آية ٣٠.

الأرض، والتعرف إلى قواها وطاقاتها، وذخائرها ومكنوناتها، وتحقق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها، كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام. . .

عندئذ يعيش الإنسان في هذه الأرض شاعراً أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله ـ تعالى ـ جاء لينهض بها فترة، طاعة لله وعبادة له لا أربَ له هو فيها، ولا غاية له من ورائها إلا الطاعة، وجزاؤها الذي يجده في نفسه من طمأنينة ورضى عن وضعه وعمله، ومن أنس برضى الله عنه، ورعايته له، ثم يجده في الآخرة تكريماً ونعيماً وفضلاً عظيماً.

وعندئذ يكون قد فر إلى الله حقاً، يكون قد فر من أوهاق هذه الأرض وجواذبها المعوقة ومغرياتها الملفتة، ويكون قد تحرر بهذا الفرار، تحرر حقيقة من الأوهاق والأثقال، وخلص لله، واستقر في الوضع الكوني الأصيل: عبداً لله، خلقه الله لعبادته، وقام بما خلق له، وحقق غاية وجوده، فمن مقتضيات استقرار

معنى العبادة أن يقوم بالخلافة في الأرض، وينهض بتكاليفها، ويحقق أقصى ثمراتها؛ وهو في الوقت ذاته نافض يديه منها؛ خالص القلب من جواذبها ومغرياتها؛ ذلك أنه لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لذاته هو ولا لذاتها، ولكن لتحقيق معنى العبادة فيها، ثم الفرار إلى الله منها!.

ومن مقتضياته كذلك أن تصبح قيمة الأعمال في النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها.

فلتكن النتائج ما تكون، فالإنسان غير معلق بهذه النتائج، إنما هو معلق بأداء العبادة في القيام بهذه الأعمال؛ ولأن جزاءه ليس في نتائجها، إنما جزاؤه في العبادة التي أداها.

ومن ثم يتغير موقف الإنسان تغيراً كاملاً تجاه الواجبات والتكاليف والأعمال، فينظر فيها كلها إلى معنى العبادة الكامن فيها، ومتى حقق هذا المعنى انتهت مهمته وتحققت غايته، ولتكن النتائج ما تكون بعد ذلك، فهذه النتائج ليست داخلة في واجبه ولا في

حسابه، وليست من شأنه، إنما هو قدر الله ومشيئته، وهو وجهده ونيته وعمله جانب من قدر الله ومشيئته.

ومتى نفض الإنسان قلبه من نتائج العمل والجهد، وشعر أنه أخذ نصيبه، وضمن جزاءه، بمجرد تحقق معنى العبادة في الباعث على العمل والجهد، فلن تبقى في قلبه حينئذ بقية من الأطماع التي تدعو إلى التكالب والخصام على أعراض هذه الحياة، فهو من جانب يبذل أقصى ما يملك من الجهد والطاقة في الخلافة والنهوض بالتكاليف، ومن جانب ينفض يده وقلبه من التعلق بأعراض هذه الأرض وثمرات هذا النشاط، فقد حقق هذه الثمرات ليحقق معنى العبادة فيها لاليحصل عليها ويحتجزها لذاته...

ثم يستمتع العبد العابد براحة الضمير، وطمأنينة النفس، وصلاح البال، في جميع الأحوال، سواء رأى ثمرة عمله أم لم يرها، تحققت كما قدرها أم على عكس ما قدرها، فهو قد أنهى عمله، وضمن جزاءه عند تحقق معنى العبادة واستراح، وما يقعَ بعد ذلك خارج عن حدود وظيفته، وقد علم هو أنه عبد، فلم

يعد يتجاوز بمشاعره ولا بمطالبه حدود العبد، وعلم أن الله رب، فلم يعد يتقحم فيما هو من شؤون الرب، واستقرت مشاعره عند هذا الحد ورضي الله عنه ورضي هو عن الله.

وهكذا تتجلى جوانب من تلك الحقيقة الضخمة الهائلة، التي تقررها آية واحدة قصيرة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، وهي حقيقة بأن تغير وجه الحياة كلها عندما تستقر حقاً في الضمير»[2].

وقال الأستاذ سيد موضحاً عظم الإسلام وأنه يجب على الثقات أن ينشروه ويجعلوا ذلك هدفاً لهم: «إن المؤمن هو الأعلى، الأعلى سنداً ومصدراً، فما تكون الأرض كلها؟ وما يكون الناس؟ وما تكون القيم السائدة في الأرض؟ والاعتبارات الشائعة عند الناس؟ وهو من الله يتلقى، وإلى الله يرجع، وعلى منهجه يسير.

وهو الأعلى إدراكاً وتصوراً لحقيقة الوجود...

---

(١) سورة الذاريات: آية ٥٦.

(٢) «في ظلال القرآن»: ٦/٣٣٨٧ ـ ٣٣٨٩.

وهو الأعلى تصوراً للقيم والموازين التي توزن بها الحياة والأحداث والأشياء والأشخاص... وهو الأعلى ضميراً وشعوراً، وخلقاً وسلوكاً... وهو الأعلى شريعة ونظاماً... وسينظر إلى البشرية الضالة من عَلٍ في عطف وإشفاق على بؤسها وشقوتها...»[١].

ثم إذا كان المؤمن كذلك فما هو هدفه إذاً:

«ينظر إليهم من عَلٍ في كرامة واعتزاز، وفي رحمة كذلك وعطف، ورغبة في هدايتهم إلى الخير الذي معه، ورفعهم إلى الأفق الذي يعيش فيه... وينظر المؤمن من علٍ إلى الباطل المنتفش، وإلى الجموع المخدوعة فلا يهن ولايحزن، ولا ينقص إصراره على الحق الذي معه، وثباته على النهج الذي يتبعه، ولا تضعف رغبته كذلك في هداية الضالين والمخدوعين... إنما هو الجهد والمشقة والجهاد والاستشهاد...»[٢].

---

(١) «معالم في الطريق»: ١٨٠ـ١٨٢.
(٢) المصدر السابق: ١٨٤ـ١٨٦.

وإذا كان الأستاذ سيد رحمه الله ـ تعالى ـ قد وضّح مهمة الإنسان في تعبيد الناس لله، فإن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ـ تعالى ـ قد وضّح مهمة الإنسان في ضبط نفسه وتصحيح عمله وعبادته، فقد سأله أحد أصحابه، «كيف أصبحت ؟ قال: كيف أصبح مَن ربه يطالبه بأداء الفرائض، ونبيّه يطالبه بأداء السُنّة، والملكان يُطالبانه بتصحيح العمل، ونفسه تطالبه بهواها، وإبليس يَطالبه بالفحشاء، وملك الموت يراقب قبض روحه، وعياله يطالبونه بالنفقة؟!»[١].

رابعاً: العزيمة والإصرار على مجاوزة العجز:

وذلك لأن المرء إن لم يكن عنده عزيمة وإصرار على مجاوزة عجزه فإنه يراوح مكانه ولا يتقدم أبداً ، وقد قيل: «ما لزم أحد الدَعَة[٢] إلا ذلّ، وحب الهوينا يكسب الذل، وحب الكفاية[٣] مفتاح العجز »[٤].

---

(١) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٩٣٠.
(٢) الدعة: الراحة.
(٣) أي حب الاكتفاء بما عليه الإنسان وعدم الرغبة في الارتقاء.
(٤) «محاضرات الأدباء»: ١/ ٤٤٨.

ومن كان يملك عزيمة وإصراراً على تجاوز عجزه فإنه سينجح ـ بإذن الله تعالى ـ ويجوز تلك القنطرة النفسية الصعبة، العزيمة قوة باطنة تدفع بصاحبها إلى تحقيق مالم يظن أنه قادر على تحقيقه.

ولا بد من التدرب على جعل هذه العزيمة فعلاً واقعاً في دنيا الناس «فالنفس بحاجة إلى تمارين مستمرة وتدريب لايتوقف. . . تدرب تدريباً على مراس البطولة وأعمال البطولة، على الجد والاجتهاد، على التفكير والتأمل، على البحث والرويّة، على التقرير والمضي فيما تقرر، ومهما تكن إرادتك هزيلة رجراجة جازعة لاتلبث إذ تدربها أن تقوى وتشتد، وتفرض نفسها عليك لتفرض نفسك على الحياة والأحياء من بعد»[1].

«كن على ثقة تامة بأنك تملك خزائن كثيرة ومستودعات كبيرة بها من القدرات والطاقات والمواهب ما يؤهلك أن تصبح رجلاً عظيماً، وإنساناً خالداً في التاريخ»[2].

---

(١) «الشخصية الناجحة»: ٤٢.
(٢) المصدر السابق.

وحتى يُعلم أن المرء يملك خزائن لاتنفد من الطاقة والقدرة التي وضعها الله ـ تعالى ـ فيه، وأن معظم الشعور بالعجز وهميّ، فلينظر إلى أحوال الناس في رمضان وكيف يضاعفون الجهد في الصلاة وقراءة القرآن والقربات، وإلى الذي يبذله الطلاب حال الامتحانات، والموظفون في المواسم الضاغطة، والأطباء في الكوارث، ورجال الدفاع المدني في أوقات المواسم والكوارث وهكذا. . .

فإذا علمنا هذا عرفنا أن في الإنسان كنوزاً لا تنفد من الطاقة والقدرة، وهو في أمس الحاجة إلى تحسسها وإخراجها إلى حيز الوجود والإمكان.

خامسا: وضع هدف سامٍ يُحاول الوصول إليه دائما:

فكلما سما هدف المرء ضاعف جهده للوصول إليه، ولذلك يُلحظ على أكثر العاجزين أنهم لا هدف لهم إطلاقاً أو أن أهدافهم تافهة حقيرة لاقيمة لها، ويُرى أن أكثر العظماء كانت لهم أهداف عظيمة حاولوا

الوصول إليها، فأفلحوا تارة وأخفقوا أخرى، لكن فلاحهم ـ إذا أفلحوا ـ شيء عظيم.

لذلك على العاجز ـ حتى يتخطى عجزه ـ أن يضع نصب عينه هدفاً عظيماً يسعى أن يصل إليه، وهذا السعي في الحقيقة هو تجاوز للعجز.

قال المتنبي[١]:

إذا غامرت في شرف مَرُوم

فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت في أمر حقير

كطعم الموت في أمر عظيم

يرى الجبناء أن العجز عقل

وتلك خديعة الطبع اللئيم

---

(١) شاعر الزمان، أبو الطيب أحمد بن حسين بن حسن الجُعفي الكوفي الأديب الشهير بالمتنبي، ولد سنة ٣٠٣ وأقام بالبادية، وكان من أذكياء عصره، بلغ الذروة في النظم، وسار ديوانه في الآفاق، ولازم الملوك ومدحهم، ثم سقط فتنبأ ثم تاب، قتل سنة ٣٥٤، انظر سيرته في «سير أعلام النبلاء»: ١٦/ ١٩٩ـ٢٠١.

«إن تحقيق هدفك بحاجة إلى مزيد من العزيمة، وقوة الإرادة، والثقة بالنفس، والقوة النفسية، والشجاعة الأدبية، بَيْد أنك ستواجه سيلاً عارماً من التثبيط، ومن التشكيك، ومن التنقيص، وكل ذلك بهدف التقليل من مكانتك وشأنك، ولا ضير من ذلك إذا كانت مناعتك النفسية قوية، فهناك عوائق وعقبات ومشاكل في طريق هدفك، عليك أن تستعد لكل ذلك وأبعد من ذلك، وتأكد من أن الطَرْق المتكرر لابد وأن يفتت الصخرة الصماء»[١].

والسعي للوصول إلى الهدف السامي يضمن لك ثلاثة أمور ـ بإذن الله تعالى ـ:

١ـ الدرجات العظيمات في الآخرة.

٢ـ الثبات على المنهج الصحيح.

٣ـ حسن الذكر والثناء بعد الموت، الجالب لدعاء الصالحين، واستغفار المستغفرين، قال سيدنا

---

(١) «الشخصية الناجحة»: ٧١.

إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾[١].

أما لو تحقق هدفك وكان عظيماً سامياً فقد فزت فوزاً عظيماً، والله الموفق[٢].

وبعد أن أوردت علاجاً - أو ما أظنه علاجاً - للعجز، أورد بعض الطرق لتخطي بعض أنواع العجز، وأرجو أن أكون قد وفقت في أن تكون واقعية ممكنة التناول لكل الثقات، والله أعلم.

أولاً: العجز الإيماني:

الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، لكن كثيراً من الثقات يشتكون أن إيمانهم في نقص دائم، وأنهم لا يجدون سبيلاً إلى الوصول إلى درجات عالية في الجوانب الإيمانية المختلفة خاصة أنهم يقرأون في كتب السير عن حياة السلف وكيف كانت عامرة بالإيمان واليقين، فيتولد عندهم

---

(١) سورة الشعراء: آية ٨٤.

(٢) انظر فقرة «تفاهة الأهداف» التى مرت سابقاً.

إحباط متكرر بسبب البَوْن الشاسع بين ما يقرأونه وبين ما يجدونه في أنفسهم، ويظلون يتساءلون عن السبيل لحل هذا الإشكال.

وأرى ـ والله تعالى أعلم ـ أن عرض وسائل علاج عملية ـ أي قابلة للتحقيق في عصرنا هذا ـ هو الحل الأنجع في هذه الأحوال، ولذلك سأورد بعض الوسائل القائمة على تجارب مستقاة من عمل آخرين أرفعَ مقداراً وأعظم إيماناً، وهي في الوقت نفسه ممكنة التطبيق في عصرنا هذا بكل ما فيه من تعقيدات، إن شاء الله تعالى، لكن قبل هذا لابد أن يُعلم الآتي:

«إن احتمال ظهور نماذج تقابل نماذج السلف ممكن لكنهم لن يكونوا إلا قلائل، ويجب أن نوقن أن الله شاء ذلك وأراده وكتب علينا أن نكون أقل استمتاعاً بجمال الإسلام عما كان عليه السلف؛ فإن خيرية الأجيال في تناقص وتقلص مستمر، وإن القدر قد جعل المنافسة من الآخر للأول مستحيلة لكنها المقاربة والتسديد من غير أن يدب إلى نفوسنا يأس في حيازة

بعضنا لما حازته أجيال السلف من المكارم»[١].

«إننا الآن في فترة اجتماعية وسياسية ميزتها التراجع والتدهور... وجيل المسلمين الحاضر يعيش فترة تراجع شديد... تولد عنه فراغ... وفي مثل هذا الفراغ يضمحل الحماس... وهذا ما يعطي من باب آخر شبه عذر نعتذر به لجيلنا الحاضر في تخلفه عن بلوغ الدرجات العالية وقصوره عن منازل السلف... فلا نسرف في اتهام أنفسنا بأنواع الضعف، وأن نوقن أننا على خير وفير كثير إن شاء الله وبفضل منه ومِنّة...»[٢].

وسائل عملية لعلاج العجز الإيماني:

أـ المحافظة على أداء الفرائض:

وقد يقول قائل: مالنا ولهذا ؟! إذ من أول أولويات الثقة أداء الفرائض، لكني إنما أريد بأداء الفرائض أداءها على وفق ما جاء عن النبي ﷺ في

---

(١) «العوائق»: ٣٠٤-٣٠٥ بتصرف.

(٢) المصدر السابق: ٣٠٧-٣٠٩ بتصرف.

أحاديثه الشريفة أو قريباً من ذلك؛ إذ الصلاة ـ على سبيل المثال ـ التي نتحسر على تضييع سننها وتطوعاتها لانؤدي فرائضها كما ينبغي، فإن أدينا الفرائض كما ينبغي التفتنا عندئذ إلى سننها وتطوعاتها المقيدة والمطلقة.

قال النبي ﷺ:

«لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»[١].

إذاً يجب على المسلم إن سمع النداء أن يبادر إلى الإجابة حتى يدرك الصف الأول ويدرك السنة والتكبيرة الأولى، وهذا يقصر فيه كثير من الثقات ثم إنهم يشكون من ضعفهم في التطوعات وقيام الليل، فكيف يقوم الليل من لايحرص على الصف الأول والتكبيرة الأولى، فمن كان ضعيفاً في هذا فهو في غيره أضعف وأعجز.

وهذا الذي ذكرته في المحافظة على الصلوات

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الأذان: باب الاستهام في الأذان.

مطلقاً، لكن هناك صلوات تشتد الحاجة إلى المحافظة عليها، قال النبي ﷺ:

«لو يعلمون ما في العَتَمة[١] والصبح لأتوهما ولو حَبْواً»[٢].

ثم إنك ترى عدداً من الثقات يفرِّط في أداء صلاة الفجر جماعة في المسجد، فكيف يريد مثل هذا أن يقوم الليل ويكثر من التطوعات وحاله ماذكرته؟!.

ثم إنه في صلاة الفريضة قد يصلي بجانبك إنسان بينه وبين صلاتك كما بين المشرق والمغرب، وذلك لأنه خاشع متدبر ولست أنت كذلك، فإن حاول المرء التدبر والتفكر فيما يقرأه، وإن قسر نفسه قسراً على تعظيم الله والإقلال من الحركة الظاهرة والباطنة، فسيكون لصلاته أجر مخالف لما كانت عليه قبل الخشوع، نعم قد سقط عنه أداء الفريضة في الحالين

---

(١) أي صلاة العشاء.

(٢) المصدر السابق. والحديث في صحيح البخاري: كتاب الجماعة والإمامة: باب فضل التهجير إلى الظهر.

لكن كم بينهما من الأجر العظيم ؟

ب ـ المبادرة إلى عبادات هي في وسع كثير من الثقات:

هناك من يقرأ من الثقات أن الإمام مالك ظل يصلي الفجر بوضوء العشاء تسعاً وأربعين سنة[١]، ومن يقرأ أن هناك من حج خمسين مرة أو أكثر[٢]، وأن عدداً من الصالحين كانوا يحيون ليلهم كله صلاة وعبادة وذكراً[٣]، وأن عدداً من الأئمة ختموا القرآن في رمضان ستين مرة بل أكثر، وكانوا قد ختموا آلاف الختمات في حياتهم[٤]، فإذا قرأ هذا وأمثاله ـ وهو كثير مبثوث متواتر لا يمكن رده ولا التعكير عليه بوجه ـ يصيبه الإحباط، ويظل متحسراً متفجعاً على حاله، وهاته الحسرة وذاك التفجع علامة خير لا شك ، لكن

---

(١) «ترتيب المدارك»: ٣/ ٢٥٠.
(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٣٢٩، ٣٥٥، ٣٥٩، ٣٧٠، ٣٩٣، ٦٧٢.
(٣) المصدر السابق: ١/ ١٧٦، ٥٥١، ٥٩١.
(٤) المصدر السابق: ١/ ٣٢٩، ٤١٤، ٤٩٠، ٦٥٢، ٦٧٥، ٦٨٤، ٧٦٤، ٨٩٥، ٩٠٣.

ينبغي ألّايصل المرء إلى حد الإحباط؛ إذ هناك من العبادات العظيمة التي قد تماثل ما ذكرته آنفاً وهو مقصر فيها لايلتفت إليها وهي في متناول يده، وأحب أن أشير إلى شيء من ذلك عسى أن يكون عوناً لمن يطلبه:

١ـ صيام التطوع:

كان الصيام في سالف الزمان من أصعب الأمور، والمحافظة عليه شاقة، لكن انظر إلى الصيام في عصرنا هذا تجده سهلاً ميسراً، حيث توفرت وسائل تكييف الهواء فصارت السنة ربيعاً دائماً ـ ولله الحمد والمنة ـ فلماذا لا يغتنم المرء عبادة الصيام، وهي أشرف العبادات؛ قال النبي ﷺ:

«والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، الصيام لي وأنا أجزي به»(١).

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الصوم: باب فضل الصوم.

وقال ﷺ:

«ما من عبد يصوم يوماً في سبيل الله ـ تعالى ـ إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً»[١].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه:

«إن كنا لنكون مع رسول الله ﷺ في السفر في اليوم الحار، ما في القوم أحد صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة»[٢].

وكانت عائشة تصوم الدهر[٣].

وكان النبي ﷺ قد وصّى أبا أمامة بالصوم حيث قال له: «إنه لا مثْل له» فكان أبو أمامة وامرأته وخادمه لايُلفون إلا صياماً[٤].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الصيام: باب فضل الصيام في سبيل الله.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٤١.

(٣) المصدر السابق: ١/ ١٣٢، يعني ما عدا الأيام المحرم صومها.

(٤) المصدر السابق: ١/ ٢٨١. والحديث في سنن النسائي: كتاب الصيام: باب فضل الصيام.

فإن كان الأمر كذلك فلماذا لا يديم الإنسان الصيام أو يقارب الدوام، خاصة أن كثيراً من الأعمال اليومية تقتضي من المرء أن يفطر ويتغدى خارج منزله فلا يعود إلاّ قُبيل الغروب، فلماذا لا يتابع الصيام إذاً.

وهناك شرائح كبيرة من طلاب الثانويات والجامعات ممن لم يتزوج بعد، وليس عليهم التزامات اجتماعية أو مالية، فلم لا يديمون الصيام، فهذا باب ميسور لأكثر الناس في هذا العصر وهم عنه غافلون، وهو يقارب بل ربما يفوق ما يتحسرون عليه من قيام الليل وكثرة التطوعات، والله أعلم.

٢- الذكر:

وهي عبادة سهلة وفي الوقت نفسه عظيمة عظيمة، وأكثر الثقات غافل عنها، بل إن بعضهم ـ هداهم الله تعالى ـ يرمي من يديم الذكر ويحرك به شفتيه بأنه صوفيّ و مبتدع، وهو في هذا مخطىء أشد الخطأ إذ يعيب الذاكرين، فقد كان ﷺ يذكر الله على كل حال، وقد قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ

جُنُوبِهِمْ﴾[١]، فهذه الثلاثة جُلّ أحوال المرء.

وكان أبو مسلم الخولاني[٢] يرفع صوته بالتكبير حتى مع الصبيان ويقول: «اذكر الله حتى يرى الجاهل أنك مجنون»[٣].

وأجر الذكر عظيم، فقد قال ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[٤].

وقال النبي ﷺ:

«سبق المفردون. قالوا: وما المفردون يارسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[٥].

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٩١.

(٢) عبدالله بن ثُوَب الداراني الخولانيّ سيد التابعين وزاهد العصر، توفي بداريا في الشام سنة ٦٢، وله أخبار جميلة انظرها في «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٧ـ ١٤.

(٣) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٣١٩.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار: باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار: باب الحث على ذكر الله سبحانه وتعالى.

وقال النبي ﷺ:

«من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير في كل يوم مائة مرة كانت له عَدْل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء إلا رجل عمل أكثر منه»[١].

إذاً الذكر عبادة ميسورة عظيمة الأجر، لكن يحتاج المرء أن يعتادها ويحرك بها لسانه وشفتيه حتى تكون ديدنه فيفوز بأجر عظيم ميسور.

كان داود بن أبي هند[٢] يحدث الفتيان فيقول لهم: «أخبركم لعل بعضكم أن ينتفع به: كنت وأنا غلام

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الدعوات: باب فضل التهليل.

(٢) الإمام الحافظ الثقة أبو محمد الخراساني ثم البصري، من موالي بني قُشَير، توفي سنة ١٣٩، انظر أخباره في «سير أعلام النبلاء»: ٦/ ٣٧٦ ـ ٣٧٩.

أختلف إلى السوق[١] فإذا انقلبت إلى البيت جعلت على نفسي أن أذكر الله إلى مكان كذا وكذا، فإذا بلغت إلى ذلك المكان جعلت على نفسي أن أذكر الله كذا وكذا حتى آتي المنزل»[٢].

وقص إنسان شارب معروف الكرخي[٣] فلم يفتر من الذكر فقال: كيف أقص؟ قال: «أنت تعمل وأنا أعمل»[٤].

وقال حَجّام لأحد السلف: سَكّن شفتيك. قال: قل للزمان حتى يسكن[٥].

ولو أدام المرء الذكر ـ وهو أمر ميسور، لكن يحتاج التعود كما ذكرت ـ لحصل على أجر عظيم، ولارتقى إيمانه وعلت روحه بما لا مزيد عليه، والله أعلم.

---

(١) أي أتردد عليه.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ١/ ٥٤٧.

(٣) علم الزهاد، بركة العصر، أبو محفوظ البغدادي، توفي سنة ٢٠٠، انظر أخباره في «سير أعلام النبلاء»: ٩/ ٣٣٩ـ٣٤٥.

(٤) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٧١٤.

(٥) المصدر السابق: ٣/ ١٢٨٣.

٣- الصدقة:

وهي عبادة ميسورة ولو أن يتصدق المرء بدراهم معدودة فإن الله يتقبلها منه ـ إن كانت من كسب طيب ـ وينميها له.

قال النبي ﷺ:

«من تصدق بعَدْل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يرُبي أحدكم فَلُوّه حتى تكون مثل الجبل»[١].

هذا فيمن يتصدق بتمرة أو عَدلها فماذا يكون أجر من تصدق بصدقات عظيمة، أوضحى بأموال كثيرة بشكل دائم، لاشك أنه سيحصل على أجر عظيم قد يفوق أجور من يقوم الليل وهو يتحسر على حاله إزاءهم، والله أعلم.

وقد كان السلف ينفقون أموالهم أو جلها في سبيل

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الزكاة: باب لا يقبل الله صدقة من غلول، ولا يقبل إلا من كسب طيب. والعَدْل: المساوي، والفلو: المُهر، وهو الصغير من الخيل.

الله، أفنبخل نحن بالتصدق بجزء عظيم من أموالنا، هذا ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ كان يفرق في المجلس ثلاثين ألفاً، ثم يأتي عليه شهر ما يأكل مُزْعَة لحم[١].

وقد بعث إليه معاوية ـ رضي الله عنه ـ بمائة ألف، فما حال عليه الحول وعنده شيء منها[٢].

وهذا أبو حفص النيسابوري[٣] أرسل في يوم واحد بضعة عشر ألف دينار يفتك بها أسرى فلما أمسى لم يكن له عشاء[٤].

فهذه بعض الوسائل الميسورة بل هي في متناول يد كل ثقة، لكنه قد يغفل عنها، وهناك وسائل أخرى أعرضت عن ذكرها اختصاراً، وهي كذلك سهلة ميسورة، وذلك نحو تدبر القرآن، وقراءته بحزن أو تحازن،

---

(١) أي قطعة يسيرة من اللحم، «نزهة الفضلاء»: ١/ ٢٥٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الإمام القدوة الرباني الزاهد شيخ خراسان عمرو بن سلْم النيسابوري، توفي سنة ٢٦٤، انظر أخباره في «سير أعلَام النبلاء »: ١٢/ ٥١٠ ـ ٥١٣.
(٤) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٩١٣.

وعبادة التفكر في خلق الله وآلائه، وعبادة العزم على سد الثغرات التي يشكو منها المسلمون في الصناعة والزراعة والتقنية والاختراعات بعامّة، وهكذا. . .

ثانيا: العجز الثقافي:

يشكو أكثر الثقات من ضعف ثقافتهم وقلة معرفتهم، والعجب أنك تجد أحدهم يشتكي سنين متطاولة من ذلك الأمر ثم إنه لا يصنع شيئاً ذا بال لتقويم عجزه هذا وتجاوزه، وكان الثقات السابقون إذا لمسوا من أنفسهم ضعفاً أو عجزاً عن شيء سارعوا إلى إقالة عثرتهم وتجاوز عجزهم، فهذا خلف بن هشام البزّار[1] قد أشكل عليه باب من النحو فأنفق فيه ثمانين ألف درهم حتى مهر فيه[2].

---

(١) خلف بن هشام بن ثعلب، الإمام الحافظ الحجة، شيخ الإسلام، أبو محمد البغدادي البزار المقرىء، ولد سنة ١٥٠، وكان من أهل القرآن واللغة، إماماً كبير الشأن، ورعاً، توفي سنة ٢٢٩ رحمه الله تعالى، انظر سيرته في «سير أعلام النبلاء»: ١٠/ ٥٧٦_٥٨٠.

(٢) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٧٨٣.

وهذا قد أشكل عليه باب من أبواب النحو فكيف بنا نحن وقد أشكلت علينا أبواب، وهذه الأبواب ليست من النحو بل هي ـ والله ـ من أبواب الدين؛ إذ كم من الثقات لا يستطيع قراءة القرآن ولو على وجه يصحح فيه الخطأ واللحن، وآخرون لايستطيعون فهم أساسيات من الدين ولا يجتهدون لتعلمها، وآخرون لايفرقون بين بعض فروض الأعيان وبين فروض الكفايات، بَلْهَ[1] أنهم يثقفون أنفسهم بالثقافة الإسلامية والإنسانية التي يحتاجونها لإقامة دعوتهم وإحسان خطابهم ومحاوراتهم.

وعوضاً عن أن يسارع هؤلاء الثقات ليسدوا الثغرة الواضحة في بنائهم الثقافي تجدهم يراوحون مكانهم عجزاً وتوانياً سنوات طويلة كأنه لاشيء يعكر عليهم صفوهم، ولو لمسوا من أنفسهم تقصيراً في حياتهم الدنيوية المادية لسارعوا إلى علاجه بوجه من الوجوه، والله المستعان.

---

(١) اسم فعل أمر بمعنى دع أو اترك.

ومن الوسائل العملية لعلاج العجز الثقافي ما يلي:

أولاً : حفظ القرآن العظيم :

إن حفظ القرآن العظيم ثراء لثقافة المرء في جوانب متعددة كثيرة، وهو الخطوة الأولى في سبيل الرقي بالثقافة و المعرفة .

وهذه أمنية كل الثقات لكن تحول دونها عقبات أكثرها وهميّ، أو أنه يمكن أن تُتجاوز بشيء من التخطيط، كأن يُحفظ في اليوم صفحة أو نصفها على وجه الدوام والثبات حتى يُفرغ من الحفظ، وألا يُتوقف في الحفظ ولو يوماً واحداً.

جاءني أحد الثقات يوماً طالباً المساعدة في الحفظ فأشرت عليه بحفظ صفحة كل يوم بدون انقطاع، فجاءني بعد قرابة أربعة أشهر وقد حفظ ثمانية أجزاء تقريباً، فشجعته وأوصيته بالاستمرار لكنه طلب التوقف لطارىء عرض له فأشرت عليه ألا يفعل حيث إن طارئه هذا ليس بالصعب تجاوزه لكنه لم يسمع، ثم قابلته بعد ثمان سنوات فأخبرني أنه لم يحفظ بعد، وكان سبب هذا

ذلك التوقف الذي كان حاجزاً بينه وبين مواصلة الحفظ.

ثانياً: حفظ عدد من أحاديث النبي ﷺ:

الثقة حال دعوته واختلاطه بالناس يحتاج إلى أن يثقفهم ويعلمهم، ويرشدهم إلى شرائع الإسلام، وليس بعد حفظ القرآن معين له إلا أحاديث النبي ﷺ؛ إذ هي مَعِين ثَرٌّ للثقافة والنقاش الموضوعي المتزن.

وسبيله للحفظ هو سبيله لحفظ القرآن المذكور سابقاً، وهو تعيين مقدار يوميّ لايتخلف، فإنه سوف يجد له فائدة كبيرة ولو بعد حين.

وعليه أن يختار من الأحاديث الصحيحة عدداً مناسباً لأحواله وانشغاله بأموره الأخرى حتى لا يغالي في جانب دون جانب.

ثالثاً: إلزام النفس بالقراءة:

القراءة هي جنة الثقات الدنيوية؛ إذ بها يعرفون أمور دينهم ودنياهم، ولست بحاجة إلى ذكر مزايا القراءة وطرقها؛ إذ لذلك مكان آخر غير هذا الكتاب لكنني أرشد

إلى أساليب عملية لتجاوز العجز في القراءة:

أـ الالتزام بقراءة كتاب كل مدة محددة:

وذلك كأن يُلزم المرء نفسه بقراءة كتاب صغير كل شهر، وبقراءة كتاب كبير كل فصل، وبقراءة مبسوطة كل سنة، وهذه المبسوطة مثل «البداية والنهاية» أو كتاب في التفسير أو «صحيح البخاري» وهكذا.

فمن التزم هذا الالتزام سيجد أنه قد قرأ مقداراً عظيماً في نهاية كل سنة.

ولا يقولن ثقة: قد رجعنا إلى الأماني غير الواقعية؛ إذ ما أوردته قابل للتطبيق، ولو استغل كل امرىء دقائق انتظاره أهلَه وأولاده وقت الطعام والتوصيل إلى المدارس، أو مكث في المسجد بعد الفجر حتى يأتي وقت انصرافه إلى عمله، أو قرأ قليلاً قبل النوم، أو قرأ في عيادات الأطباء ـ وما أكثر ما يُذهب إليها هذه الأيام وتُهدر الأوقات فيها ـ لاستطاع أن يقرأ كتباً كل سنة وليس كتاباً واحداً فقط، وليُسأل المجربون.

ب ـ الالتزام بقراءة مجلة في كل فن يُحتاج إليه:

وذلك كأن يقرأ مجلة «المجتمع» مثلاً ليتعرف على أحوال المسلمين، ومجلة «الأدب الإسلامي» ليعرف أخبار الأدب وكيف ينافح عن الإسلام وأهله ضد الحداثة والمذاهب الهدامة، يقرأ مجلة «المجمع الفقهي» ليعرف الجديد في الأحكام الفقهية والاجتهادات الشرعية وهكذا. . .

والمجلات معين ثَرٌّ للإحاطة بالجوانب الثقافية المتعددة التي يحتاج المرء الإحاطة بها، ولا يملك الثقة الانقطاع عن الاطلاع على المجلات المختلفة ولو أن يصفحها صفحاً يُفهم به ما فيها، والله أعلم.

رابعاً: سماع الإذاعات:

قد يفيد سماع الإذاعات المسموعة والمرئية، وتخير بعض البرامج المفيدة في الرقي بالثقافة وتنوعها، لكن ينبغي أن يكون ذلك بقدر، وأن يحذر مفاسدها، وأن يكون ذلك في أوقات لا يملك المرء إزاء استغلالها شيئاً كأن يكون في سيارته مع أهله، أو يكون في زيارة أقربائه وأصهاره، وهكذا. . .

خامساً ـ سماع الأشرطة:

في حياة المرء أوقات يستطيع استغلالها في الخير، ومن أهم هذه الأوقات التي لا يؤبه لها الوقت الذي يُمضيه الشخص في سيارته؛ إذ بمقدوره أن يستفيد منه أتم استفادة لو استمع إلى محاضرات العلماء والمثقفين؛ إذ من فضل الله ـ تعالى ـ العظيم أن يسر لنا في هذا العصر ما كان السلف يضربون من أجله أكباد الإبل، ولو وضع المرء لنفسه خطة يسير عليها في الاستماع لمحاضرات العلماء والمفكرين في سيارته لاستفاد استفادة عظيمة، والله أعلم.

ثالثاً: العجز الدعوي:

إذ الثقة مؤهل لبثّ علمه وخيره وصلاحه بين الناس، فإن لم يفعل فهو عاجز عاجز، وإن أراد أن يتجاوز عجزه فليقرأ أخبار المسلمين المحتاجين إلى نصرته ودعوته، وأخبار الكافرين الذين يصدون عن دينه ويحاربونه، وليقرأ جهودهم وحركتهم الدائبة في القارات ليهدموا الدين الحق الباقي إلى يوم القيامة

فعسى أن يحركه كل ذلك للعمل وترك العجز والتواري .

بعض الوسائل العملية لعلاج العجز الدعوي:

أ ـ فهم أن الدعوة واجبة :

من الوسائل العملية لعلاج العجز الدعوي أن يفهم الثقة أن الدعوة واجبة، وأنها ليست أمراً نفلاً يفعله إن شاء ويتركه إن رغب عنه، بل واجب عليه وعلى أمثاله أن يبلغوا ما أنزل على النبي ﷺ كما بلغ هو ﷺ وينذروا كما أنذر بأبي هو وأمي ﷺ، «ولهذا قال ابن القيم رحمه الله تعالى : إن مقام الدعوة إلى الله هو أرفع المقامات عند الله تعالى»[١] .

ب ـ معرفة تاريخ العاجزين :

ومن الوسائل العملية أيضاً معرفة تاريخ العاجزين عن الدعوة وأنهم قبعوا في زوايا التاريخ لا يؤبه لهم ولا يدري بهم أحد، فإن الإنسان إذا عرف عاقبة أمره من خلال أشباهه سيفيق عنده الضمير والعقل الخامل كما قيل :

---

(١) «الفتور» : ٣٧ .

اقـرأ التـاريـخ إذ فيـه العِبـر

ضاع قوم ليس يدرون الخبر[١]

جـ ـ إحياء روح الجدية في النفس:

والجدية «حالة من التيقظ المتواصل المستديم تتيح استغلالاً وافراً لطاقات الدعاة في سد الحاجات واستثمار الفرص دون تعطيل لشيء منها، وهذه الجدية الدائمة منضبطة بما ذكره الرافعي[٢]:

«إن روح العمل الدائم تكون فيما يشق بعض المشقة ولا يبلغ العسر والحرج، كما تكون فيما يسهل بعض السهولة ولا يبلغ الكسل والإهمال»[٣].

ويقول الإمام البنّا ـ رحمه الله تعالى ـ واصفاً الجدية:

---

(١) المصدر السابق: ٤٥.

(٢) مصطفى صادق بن عبدالرزاق بن سعيد الرافعيّ، عالم بالآداب، من كبار الكتاب، وشاعر، أصله من طرابلس الشام، وولد في بَهْيتم بمصر سنة ١٢٩٨، أصيب بصمم، وشعره فيه جفاف، ونثره من الطراز الأول، توفي في طنطا سنة ١٣٥٦ رحمه الله تعالى: انظر «الأعلام»: ٧/ ٢٣٥.

(٣) «الفتور»: ٣٩ـ٤٠.

«أستطيع أن أتصور المجاهد، شخص قد أعد عدته، وأخذ أهْبته، وملك عليه الفكر فيما هو فيه نواصي نفسه وجوانب قلبه، فهو دائم التفكير، عظيم الاهتمام، على قدم الاستعداد أبداً، إن دعي أجاب، أو نودي لبّى، غدوه ورواحه وحديثه وكلامه وجده ولعبه لايتعدى الميدان الذي أعد نفسه له»[١].

وفي الوقت نفسه يصف عكس حال المجاهد الجاد فيقول:

«الذي ينام ملء جفنيه، ويأكل ملء ماضغيه، ويضحك ملء شدقيه، ويقضي وقته لاهياً لاعباً عابثاً فهيهات أن يكون من الفائزين أو يكتب في عداد المجاهدين»[٢].

ولا يخفى أن وصف البنا لذلك الشخص الجاد إنما هو وصف عزيز قد لا ينطبق إلا على أفراد من الأمة قلائل، جعلنا الله منهم، وإنما كلامه مثال يُقترب منه ويبتعد بحسب التوفيق الإلهي.

---

(١) «الفتور»: ٤٠ - ٤١.

(٢) المصدر السابق.

ويخاطب الإمام المودودي ـ رحمه الله تعالى ـ الأمة حاثاً لها على الجد:

«من لوازم المجاهدة في سبيل الله تعالى حماسة القلب وتعلقه بالغاية. . . إن من الواجب أن تكون في قلوبكم نار متقدة تكون في ضرامها على الأقل مثل النار التي تتقد في قلب أحدكم عندما يجد ابناً له مريضاً ولا تدعه حتى تجره إلى الطبيب، أو عندما لا يجد في بيته شيئاً يسد به رمق حياة أولاده فتقلقه وتضطره إلى بذل الجهد والسعي.

إنه من الواجب أن تكون في صدوركم عاطفة صادقة تشغلكم في كل حين من أحيانكم في سبيل غايتكم، تعمر قلوبكم بالطمأنينة وتكسب لعقولكم الإخلاص والتجرد، تستقطب عليها جهودكم وأفكاركم بحيث إن شؤونكم الشخصية وقضاياكم العائلية إذا استرعت اهتمامكم فلا تلتفون إليها إلا مكرهين، وعليكم بالسعي ألا تنفقوا لمصالحكم وشؤونكم الشخصية إلا أقل ما يمكن من أوقاتكم وجهودكم، فتكون معظمها منصرفة لما اتخذتم

لأنفسكم من الغاية في الحياة.

وهذه العاطفة ما لم تكن راسخة في أذهانكم، ملتحمة مع أرواحكم ودمائكم، آخذة عليكم ألبابكم وأفكارَكم فإنكم لا تقدرون أن تحركوا ساكناً بمجرد أقوالكم. . . »[١].

وهذا كلام راقٍ شاف لا مزيد عليه، فإن لم يتحرك به وله العاجز مِن الثقاَت فبماذا ومتى يتحرك؟!.

رابعا :العجز النفسي:

وأعني به ما ذكرته آنفاً من مجموع الصفات القاعدة بالإنسان كاليأس والخمول والانقباض والعزوف عن الخلطة المفيدة إلخ. . .

وهذا العجز يحتاج إلى علاج متواصل حتى يُتجاوز، وتجاوزه صعب إلا لمن سهله الله ـ تعالى ـ عليه؛ وذلك لأن هذه الأمراض غدت طباعاً متأصلة في النفس ليس من السهل تجاوزها.

---

(١) «تذكرة دعاة الإسلام»: ٤٠ـ٤١.

وأنا أدعو من يعاني من مثل ذلك أن يبتهل إلى الله ـ تعالى ـ في رفعه عنه، ثم يضع لنفسه خطة محكمة ـ ربما بمساعدة أحد من برعوا في علم النفس ـ حتى يتجاوز عجزه أو يخفف منه.

وإليك هاته الكلمات التي قد تساعد على تجاوز هذا العجز:

«من شروط الفعالية حدوث شعور للإنسان أنه يملك شيئاً يمكن أن يقدمه للآخرين وهم في حاجة إليه، فحدوث هذا الشعور عنده يكون سبباً لفعاليته ونشاطه، ويمكن أن يتضح ذلك إذا نظرنا إلى العكس وهو أن الإنسان إذا لم يكن عنده شيء يقدمه للآخرين أو على الأقل يشعره بمساهمته معهم يصيبه الانطواء والخمول...

ويمكن أن يلاحظ ذلك في أدق الأعمال وأيسرها، كما يلاحظ في الإنسان الذي يحسن شيئاً يحتاج إليه الآخرون يشعره ذلك بقيمته ويجعله فعالاً في بيانه وتطبيقه... فإذا ما تحقق الإنسان من أهمية جهده في

صنع أحداث التاريخ وأدرك بجانب ذلك أنه يملك الشيء الذي يفتقده العالم للتغلب على مشاكله [انطلق ليحقق الكثير في دنيا الناس]، فإن من لايفهم أنه يملك أفكاراً عادلة وأعمالاً صالحة يمكن أن يخرج بها الناس من الظلم والظلمات لا يمكن أن يكون آمراً بالعدل. . . فإذا توفر إدراك أثر جهد الإنسان. . . يكون ذلك سبباً في ارتفاع درجة الفاعلية التي تشيع في جميع أفراد الأمة من صغيرها إلى كبيرها ومن رجالها إلى نسائها، فإن هذه المفاهيم كالغيث إبّان الربيع يساهم في تحريك النباتات والبراعم في كل مكان»[١].

وهناك أمران أختم بها هذا المبحث والكتاب كله، وهما من العوامل المساعدة على تجاوز العجز النفسي:

أ ـ معرفة أن العجز النفسي عاهة يجب التخلص منها، وليس هو أمراً فطرياً على الدوام، والدليل على

---

(١) «الإنسان حين يكون كَلاًّ وحين يكون عدلاً»: ٣٥ ـ ٣٨ بتصرف يسير.

ذلك أن الأنبياء والمرسلين والمصلحين ذوي النفوس السوية بريئون من ذلك كله.

ب ـ التدرب على الجرأة في الخلطة والمشاركة، وإقحام النفس في مكروهاتها حتى تستسيغها وتألفها، ولعل الذي يحقق هذا اعتياد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغشيان مجالس الناس والتحدث إليهم، ويجب التدرج في ذلك كله حتى لا يحبط المرء.

فإذا تنبه المرء إلى هذين الأمرين يُرجى له الخلاص مما هو فيه إن شاء الله تعالى.

***

خاتمة

هذه خاتمة هذا المبحث الذي أحسب أنه سيحرك قلوب عدد من الثقات ويرغبهم في تجاوز عجزهم، إن شاء الله تعالى.

ولقد كتبت هذا البحث بعواطف فياضة متحمساً له، وذلك أني أحسب أن الثقات قادرون ـ لو تجاوزوا عجزهم وتخطّوه ـ على تغيير وجه التاريخ المعاصر، ولئن ثابروا واجتهدوا وبذلوا وضحوا ليكونن من الطلائع المباركة التي يقضي الله ـ تعالى ـ بها قضاءه، وينصر بها دينه النصر الذي وَعَدَناه:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾[١].

---

(١) سورة غافر: آية ٥١.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[١]، ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾[٢].

«اللهم اجعل غُدُوَّنا إليك مقروناً بالتوكل عليك، ورواحنا عنك موصولاً بالنجاح منك، وإجابتنا لك راجعة إلى التهالك فيك... وثقتنا بك هادية إلى التفويض إليك... اللهم أعذنا من جشع الفقير وريبة المنافق... وطيشة العجول، وفَتْرة الكسلان، وحيلة المستبدّ، وتهوّر الغافل، ورِقْبة الخائف، وطمأنينة المغرور.

اللهم إني أبرأ من الثقة إلا بك، ومن الأمل إلا فيك، ومن التسليم إلا لك، ومن التفويض إلا إليك، ومن التوكل إلا عليك، ومن الطلب إلا منك، ومن الرضا إلا عنك، ومن الذل إلا في طاعتك، ومن الصبر إلا على بابك، وأسألك أن تجعل الإخلاص قرين

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٦٩.

(٢) سورة التوبة: آية ١٠٥.

عقيدتي، والشكر على نعمتك شعاري ودثاري، والنظر في ملكوتك دأبي وديدني، والانقياد لك شأني وشغلي، والخوف منك أمني وإيماني، واللياذ بذكرك بهجتي وسروري...

اللهم إني أسألك خفايا لطفك، وفواتح توفيقك، ومألوف برِّك، وعوائد إحسانك، وجاه المقدمين من ملائكتك، ومنزلة المصطَفَيْنَ من رسلك، ومكانة الأولياء من خلقك، وعاقبة المتقين من عبادك.

أسألك القناعة برزقك، والرضا بحكمك، والنزاهة عن محظورك، والورع في شبهاتك، والقيام بحججك، والاعتبار بما أبديت، والتسليم لما أخفيت، والإقبال على ما أمرت، والوقوف عما زجرتَ...»(١).

***

(١) من دعاء أبي حيان التوحيدي ـ رحمه الله تعالى ـ في «البصائر والذخائر».

فهرست الأحاديث

فهرست المصادر والمراجع

القرآن العظيم.

١ـ «الأعلام»: الأستاذ خير الدين الزركلي.

نشر دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الخامسة. سنة ١٩٨٠.

٢ـ «الإنسان حين يكون كَلاًّ وحين يكون عدلاً»: الأستاذ: جودت سعيد.

نشر في حدود سنة ١٣٨٨ بدمشق بدون ذكر دار النشر.

٣ـ «البداية والنهاية»: الحافظ ابن كثير = إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤).

نشر دار الفكر. بيروت. سنة ١٣٩٨.

٤ـ «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع»: القاضي الشوكاني = محمد بن علي (ت١٢٥٠).

نشر دار المعرفة. بيروت.

٥ـ «البصائر والذخائر»: أبو حيان التوحيدي = علي بن محمد العباسي (ت٤١٤).

تحقيق الدكتورة وداد القاضي.

نشر دار صادر. بيروت. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٨هـ.

٦ـ «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي»: محمد بن عبدالرحمن المباركفوري (ت ١٣٥٣).

مراجعة عبدالوهاب عبداللطيف.

نشر دار الفكر. بيروت.

٧ـ «تدريب الراوي في شرح تقريب النواويّ»: الحافظ السيوطي = عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١).

تحقيق وتعليق د. أحمد عمر هاشم.

نشر دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٥.

٨ـ «تذكرة دعاة الإسلام»: أبو الأعلى المودودي.

نشر دار العروبة للدعوة الإسلامية . لاهور . باكستان . الطبعة الثانية. سنة ١٣٩٦.

٩ـ «تدريب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة

أعلام مذهب مالك»: القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤).

نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المغرب.

١٠ـ «تفسير القرآن العظيم»: الحافظ ابن كثير = إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤).

تحقيق الأساتذة: د. محمد البنا، ومحمد عاشور، وعبدالعزيز غنيم.

نشر دار الشعب. القاهرة.

١١ـ «التوثيق والتضعيف بين المحدثين والدعاة»: د. علي عبدالحليم محمود.

نشر دار الوفاء للطباعة والنشر. المنصورة. مصر. الطبعة الأولى. سنة ١٤١٣.

١٢ـ «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»: عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦).

نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. الرياض. سنة ١٤٠٤.

١٣ـ «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»: ابن قيم الجوزية = محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت٧٥١).

نشر مكتبة المدني. جدة.
١٤ـ «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»: الحافظ ابن حجر العسقلاني = أحمد بن علي (ت ٨٥٢).
تحقيق الأستاذ محمد سيد جاد الحق.
نشر دار الكتب الحديثة. القاهرة.
١٥ـ «الرحيق المختوم»: صفي الرحمن المبارك فوري.
نشر دار الحديث ودار الوفاء. القاهرة ١٤١١هـ.
١٦ـ «الروح»: الحافظ ابن القيم = محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت٧٥١).
تحقيق الشيخ عبدالفتاح عمر.
نشر دار الفكر للنشر والتوزيع. عمّان. الأردن. سنة ١٩٨٥.
١٧ـ «سبيلك إلى الشهرة والنجاح»: د. أوريزون ماردن.
نشر دار الكتاب العربي ودار الشواف. الطبعة الأولى. ١٩٩٢م.
١٨ـ سنن ابن ماجه القزويني = محمد بن يزيد (ت٢٧٥).

تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي.

نشر دار الحديث. القاهرة.

١٩ـ سنن الترمذي = محمد بن عيسى (ت٢٧٩).

تحقيق الأستاذ أحمد شاكر.

نشر دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٢٠ـ «سير أعلام النبلاء»: الحافظ الذهبي = محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨).

تحقيق مجموعة من الأساتذة.

نشر مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى.

٢١ـ «السيرة النبوية» ابن هشام = عبدالملك ابن هشام المعافري (ت٢١٨).

تحقيق الأساتذة مصطفى السقّا وابراهيم الأنباري وعبدالحفيظ شلبي.

نشر مؤسسة علوم القرآن. بيروت.

٢٢ـ «الشخصية الناجحة»: عبدالله اليوسف.

نشر دار البيان العربي. الطبعة الأولى. سنة ١٤١٤. بيروت. جدة.

٢٣ـ «صحيح البخاري» : الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦) .

نشر دار الجيل . بيروت .

٢٤ـ «صحيح مسلم بشرح النووي» ، إعداد عدد من الأساتذة .

نشر دار الخير . دمشق . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤١٤هـ .

٢٥ـ «طريق الدعوة في ظلال القرآن» : الأستاذ أحمد فائز .

نشر مؤسسة الرسالة . بيروت .

٢٦ـ «عقبات في طريق الدعاة وطرق معالجتها في ضوء الإسلام» : الأستاذ عبدالله علوان .

نشر دار السلام للنشر والتوزيع . القاهرة . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٧ .

٢٧ـ «العوائق» : الأستاذ محمد أحمد الراشد .

نشر مؤسسة الرسالة ببيروت . الطبعة الثانية . سنة ١٤٠١ .

٢٨ـ «فتح الباري شرح صحيح البخاري» : الحافظ ابن حجر العسقلاني = أحمد بن علي (ت ٨٥٢) .

تحقيق مجموعة من الأساتذة. نشر مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة. الطبعة الأولى. سنة ١٣٩٨.

٢٩- «الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد ابن حنبل الشيباني»: الأستاذ أحمد عبدالرحمن البنا.
نشر دار الشهاب. القاهرة.

٣٠- «الفتور: آثاره وأسبابه وعلاجه»: د. جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين.
نشر دار الدعوة. الكويت. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٨.

٣١- «في ظلال القرآن»: الأستاذ سيد قطب.
نشر دار الشروق. القاهرة. بيروت.

٣٢- «قيمة الزمن عند العلماء»: الأستاذ عبدالفتاح أبو غدة (ت١٤١٧).
نشر مكتب المطبوعات الإسلامية. حلب. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٤.

٣٣- «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة»: نجم الدين الغزي (ت١٠٦١).

تحقيق د. جبرائيل جبّور.

نشر دار الآفاق الجديدة. بيروت. الطبعة الثانية. سنة ١٩٧٩.

٣٤ـ «لسان العرب»: العلامة ابن منظور الإفريقي = محمد بن مكرم (٧١١).

نشر دار صادر. بيروت.

٣٥ـ «لمحات في الثقافة الإسلامية»: الأستاذ عمر عودة الخطيب.

نشر مؤسسة الرسالة. الطبعة السابعة. سنة ١٤٠١.

٣٦ـ «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» الحافظ نور الدين الهيثمي = علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧).

نشر مؤسسة المعارف. بيروت. سنة ١٤٠٦.

٣٧ـ «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء»: الراغب الأصفهاني: الحسين بن محمد (ت ٥٠٢).

نشر دار مكتبة الحياة. بيروت.

٣٨ـ «مختصر الروضتين في أخبار الدولتين»:

المختصر لواضع هذه الرسالة.
نشر دار الأندلس الخضراء. الطبعة الأولى. سنة ١٤١٨.

٣٩ـ «المستقبل لهذا الدين»: الأستاذ سيد قطب (ت ١٣٨٦).
نشر دار الشروق. القاهرة. بيروت.

٤٠ـ «مشكلات الدعوة والداعية»: الأستاذ فتحي يكن.
نشر مؤسسة الرسالة. بيروت. سنة ١٤٠١.

٤١ـ «معالم في الطريق»: الأستاذ سيد قطب.
نشر دار الشروق. القاهرة. بيروت. سنة١٤٠١هـ.

٤٢ـ «معجم مقاييس اللغة»: الإمام أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥).
تحقيق وضبط الأستاذ عبدالسلام هارون.
نشر مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده. القاهرة. الطبعة الثانية. سنة ١٣٩٢.

٤٣ـ «مقومات الداعية الناجح»: د. علي بن عمر بادحدح.

نشر دار الأندلس الخضراء. جدة. الطبعة الأولى. سنة ١٤١٧.

٤٤ـ «منهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال ومؤلفاتهم»: أحمد بن عبدالرحمن الصويان.

نشر دار الوطن. الرياض. الطبعة الأولى. سنة ١٤١٠.

٤٥ـ «المنهل العذب الرويّ في ترجمة قطب الأولياء النووي»: الحافظ السخاوي = محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢).

تحقيق د. محمد العيد الخطراوي.

نشر مكتبة دار التراث. المدينة المنورة. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٩.

٤٦ـ «نحو ثقافة إسلامية أصيلة»: الدكتور عمر الأشقر.

نشر مكتبة الفلاح. الكويت. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٥.

٤٧ـ «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء» للمصنف واضع هذه الرسالة.

نشر دار الأندلس الخضراء. جدة. الطبعة الثانية. سنة ١٤١٥.

٤٨ـ «نصايح الشيخ للشاب الشرقي»: عبد الرضا النجفي.

بومباي. الهند. الطبعة الثانية. سنة ١٣٤٣هـ.

٤٩ـ «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين»: الدكتور محمد رجب البيومي.

نشر دار القلم بدمشق. والدار الشامية ببيروت. الطبعة الأولى. سنة ١٤١٥.

٥٠ـ «الوقت هو الحياة»: د. عبد الستار نوير.

نشر دار الثقافة. قطر. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٦.

فهرست الموضوعات